روايات مصرية للجيب
لوتس
Looloo
5
www.dvd4arab.com
سفينة العبيد

لـوتـس

فى قلب التاريخ ، تسكن حضارة مصر الفرعونية .
بكل جمالها وقوتها .
حقائقها وأساطيرها .
نورها ونارها .
من قلب النيل نبعت هذه الحضارة .
كزهرة لوتس عطرة الرائحة .
ندية الملمس .
متألقة الألوان .
وإلى قلب الماضى ، نبحر فى قارب من البردى .
نجوب أجواء زمان ولّى .
مخلفًا آثاره التى لا تزول .
شامخةً فى وجه الدهر .
وفى وجوه حاملى معاول الهدم والتشويه .
إنها زهور أينعت منذ فجر الوجود .
فتفتحت أوراقها .
وانتشرت أنوارها إلى كل الحضارات الإنسانية الأخرى .
إنها زهور لوتس .
فى قلب مصر .. القديمة ..

محمد سليمان

١ ـ سـجين ..

قارب البردى يمخر عباب النهر المستكين فى وداعة ، المجدافان يتحركان ببطء والتيار يندفع نحو الشمال مع نسمات الهواء العليلة ، والصوت يغرد بأغنية السبعة أيام الشهيرة ، فى مناجاة مع طيف حبيبة بعيد :

سبعة أيام مرت ..

سبعة أيام وأنا يانس ..

سبعة أيام معتل ..

سبعة أيام من غيرك ..

فشل الحكماء فى معرفة السر ..

ولم ينجح حتى السحرة ..

اسمك يبقينى فى الحياة ..

فحياتى قبر من غيرك ..

آه قد طال غيابك ..

سبعة أيام كاملة ، كيف تمر بدونك ؟!

الشاب فى منتصف القارب يغنى ويحرك المجدافين وحده ، تعكس صفحة المياه الرائقة صورة وجهه الشاحب الذى أضناه السهد والتفكير ، العينان خضراوان واللحية خفيفة أما الملابس ففاخرة بارعة الأناقة ، تليق بنبيل ثرى يضع على جلده الحرير الملون ويتحلى بأساور من فضة مشغولة ..

اخترق القارب أحراش الدلتا غير الكثيفة ، الشمس دافئة والصباح يبعث الانتعاش فى العروق النائمة ، والضفتان خاويتان على الجانبين ، إلا من الحقول والشجيرات والمنازل الواطئة ، نظر الشاب على الجانبين يتفحص كأنه يبحث عن شىء ما ، أو عن شخص ما ، حتى انشرح وجهه لمرآها ..

شابة واقفة على الضفة الشرقية بجوار حصان أسود ، تلوح بيدها باسمة ، رغم شحوب الوجه الذى أضناه السهد ..

والتفكير !

- (نفرو) ..

هتف بها الشاب ملوحًا بيده لها ..

- (محب) ..

هتفت بها الشابة ملوحة بيدها له ..

اقترب القارب من الضفة حثيثًا ، جدف (محب) بطاقة لا يدرى كيف تفجرت فى ذراعيه ، ومع اقترابه الحثيث لاح وجه (نفرو) بوضوح أكثر ..

بشرتها الخمرية ، شفتاها المكتنزتان ، شعرها الأسود الطويل المعقوص خلف ظهرها ، ملابسها الرثة المتسخة ، كأنها تتعمد أن تظهر فى هيئة مزرية ، متنافرة تمامًا مع هيئة الحصان الأسود بجوارها ، هذا الذى يضع فى فمه لجام من ذهب ، ويستوى على ظهره سرج ثمين مزركش كأنه قطعة فنية أصيلة !

اقترب القارب أكثر ، ولم يطق (محب) صبرًا فقفز فى النهر ليبلل قدميه وأطراف ثوبه الثمين السفلية ، مهرولاً نحو (نفرو) فى سعادة طفولية لم تملك إزاءها إلا أن تضحك ..

- كيف حالك ؟!

سألها باسمًا ولاهثًا وهو يقف إلى جوارها ، فتمالكت نفسها وحاولت أن تتوقف عن الضحك لتقول :

- بخير .. كيف حالك أنت ؟!

نظر فى عينيها مباشرة وهو يقول :

- بخير ما دمت أنت كذلك ..

أبعدت عينيها بسرعة كأنها انتزعتهما من أمامه انتزاعًا ، وأشارت إلى الحصان قائلة :

ـ كل شىء جاهز ، المؤن فى هذا الجراب المتدلى إلى جوار السرج ..

غمغم دون أن يرفع عينيه الهائمتين عن وجهها :

ـ الرحلة ستبدأ على الفور إذن ..

نظرت إليه بطريقة عفوية وهى تقول :

ـ لا يوجد ما يؤخرنا ..

وفوجئت ـ مرة أخرى ـ بتلك النظرات التى تجاهد للهرب منها دون جدوى ..

نظرات صريحة لا تخطئ الأنثى ـ أى أنثى ـ فى تأويلها على الإطلاق ..

نظرات حب !

سألته فى مراوغة :

ـ .. لماذا تنظر لى هكذا ؟!

فأجابها فى مراوغة :

ـ ألا تعرفين حقًا ؟!

عادت تسأله لاعبة ـ ربما دون أن تقصد ، ربما ! ـ على أكثر الأوتار حساسية :

ـ ماذا عن (حورى) ؟!

هنا فقط أبعد (محب) عينيه عنها ، واسود وجهه الذى أسرع يداريه بالنظر إلى الحصان :

ـ بخير هو الآخر ، أعنى .. حين افترقنا ليلة أمس أمام معبد (لوتس) كان بخير ، أما الآن فلا أعرف إن كان حقًا كذلك ..

غمغمت (نفرو) فى شرود وقبضة من جليد تعتصر قلبها الواجف :

ـ مهمته ليست سهلة على الإطلاق ..

حاول (محب) أن يمتطى ظهر الحصان بقفزة سريعة ، وهو يقول من بين أسنانه المنضغطة فى حنق مكبوت :

ـ مهمتنا أيضًا ليست كذلك ..

.. غير أنه كاد يقع أثناء محاولته غير المحسوبة ، فأسرعت (نفرو) تسنده بيدها :

ـ خذ الحذر ..

ركل (محب) الأرض فى غضب وهو يصيح كطفل :

ـ تبًا لهذا الحصان اللعين ..

نظرت إليه (نفرو) فى إشفاق ، سارعت بإخفائه وهى تحاول أن تكسو لهجتها بقدر ولو ضئيل من المرح :

ـ إنه لم يتحرك أنملة ..

ـ أعرف ..

قالها (محب) فى مرارة ، سارع بإخفائها هو الآخر بعد أن زفر فى حرارة ..

ـ .. الآن ننطلق نحو الشرق ، كفريسة تنتظر الصياد ..

أردف بها وهو يشير نحو الشرق حيث تمتد الحقول من خلفها الصحراء ، ونظرت (نفرو) إلى حيث يشير متممة وهى تستشعر الخطر الذى سوف يسيران إليه معًا بالأقدام :

ـ نعم ، أنت السيد وأنا جاريتك يا مولاى ..

شردت عينا (محب) للحظة لام فيها نفسه ـ بينه وبين نفسه ـ على موقفه قبل لحظات عندما ذكر اسم رفيقه وصديقه ، ثم إنه غمغم وهو يضم قبضته إلى صدره :

ـ ولنتمن لـ (حورى) التوفيق فى الهول الذى يخوض فيه بمفرده ..

شردت بعينها مثله ، وخفق قلبها إذ غمغمت وراءه :

ـ نعم ، فى أكثر الأماكن خطرًا فى (طيبة) ، وربما فى المملكة الفرعونية كلها ..

عاد (محب) يغمغم كأنه يكمل جملتها :

ـ فى السجن الكبير !

ثم إنه التفت إلى الحصان واستطاع ـ هذه المرة ـ أن يعتليه بقفزة واحدة ماهرة ..

نظرت إليه (نفرو) فمد إليها يده ، ولما استوت جالسة خلفه لكز الحصان فى بطنه بأقصى ما فى ساقه من قوة ، لينطلق بهما هذا الأخير ناهبًا بحوافره الأرض جهة الشرق ..

حيث الصحراء ..

وحيث أنياب الخطر البارزة تنتظر من تطبق عليه ..

★ ★ ★

مع أول خيط من خيوط الشمس المشرقة ، انفتحت بوابة السجن الكبير الواقع على حدود العاصمة (طيبة) ، ودوى هتاف جهورى لأحد الحراس :

ـ سجين جديد ..

شخصت عيون السجناء نحو البوابة ونحو الهتاف ، واستطاعوا أن يلمحوا ـ فى ضوء المكان الشحيح ـ ذلك الظل الذى اندفع عبر البوابة فى ثبات ؛ ظل طويل مفتول العضلات يرفل فى قيود السجن الحديدية ، وفى ظهره يصوب حارسان غليظان شديدان حربتين طويلتين تحسبًا لأى حركة غادرة تصدر عنه ..

توقف السجناء عن التهام طعام الإفطار المبكر المكون من خبز وجبن وجعة ، وأخذوا يضيقون الحدقات فى محاولة لاستجلاء ملامح هذا الوافد الجديد فى رحلة فقدان الحرية ، التى قطعوا هم شوطًا طويلاً فيها ..

ورويدًا رويدًا بدأت الملامح تتضح ، الشعر الفاحم المجعد ، البشرة السمراء ، النظرات الصارمة ، الزى الرسمى لضابط ذى رتبة منخفضة نوعًا فى الجيش الفرعونى ، والمعصمان والكاحلان محاطان بسلاسل معدنية تعوقه عن الحركة بعض الشىء ..

ظل المشهد ثابتًا بضع ثوان ، كأن الزمن قد تجمد ، أو كأن الوجوم قد تمدد ، حتى دفع أحد الحارسين الوافد الجديد فى كتفه ، بمنتهى الغلظة :

ـ انضم إلى أقرانك أيها المشاغب العنيد ..

اندفع الوافد بقوة الدفعة بضع خطوات للأمام ، لكنه لم يسقط ، وإنما استدار نحو الحارس مدمدمًا فى غضب كالسعير :

ـ ستدفع ثمن هذه الدفعة غاليًا يا صاح ..

بهت الحارس للحظة ، قبل أن تجلجل ضحكته الواثقة وهو يقول :

ـ يا لك من مدعٍ صدق نفسه ، أنت الآن تحت رحمتنا أيها الأحمق ، لست إلا نزيل فى سجننا الكبير ، لنا الأمر وعليك السمع الطاعة .. هل تفهم ؟!

لهث الوافد كالأسد الحبيس دون أن يرد إلا بنظرات حارقة ، بينما مد الحارس الثانى يده إلى كتف زميله قائلاً :

ـ دعك منه ، ولنعد إلى إفطارنا الذى لم نتناوله ..

هزَّ الحارس الأول رأسه بالإيجاب قائلاً :

ـ صدقت يا عزيزى ، هؤلاء الحثالة لا يستحقون حتى عناء الجدل ..

ثم إنه لوح بحربته فى وجوه الجميع هاتفًا :

ـ .. عند الظهيرة كونوا جاهزين للسفر الطويل يا أوغاد ، على المياه ترحمكم فتبتلعكم فى جوفها الحنون ..

وجلجلت ضحكته إذ خرج مع صاحبه ، مغلقًا البوابة الضخمة خلفه ، ليعود المكان معتمًا كما كان ، لا يبدد عتمته المدلهمة إلا بصيص من الضوء الآتى عبر الكوات الضيقة فى سقف السجن العالى ..

زمجر الوافد فى وقفته ، وعاد يغمغم لنفسه :

ـ سترى أيها الوغد أن (حورى) لا ينسى ثأره أبدًا !

سرت همهمات خافتة بين السجناء لم يستطع (حورى) فى وقفته أن يميز منها ما يُفهم ، فسار عدة خطوات متثاقلة للأمام محاولاً الاقتراب واستجلاء ما حوله ومن حوله ، استطاع أن يميز بعض الوجوه الغارقة فى الظلم والظلمة ، وجوه تعلوها غبرة ، ترهقها قترة ، يائسة بائسة ، وفى النهاية استطاع أن يلمح مبتغاه ، لكنه لم يندفع نحوه على الفور ..

حدث نفسه : علىّ اقتناص الوقت المناسب وإلا بدا الأمر مكشوفًا أكثر من اللازم ..

اختار (حورى) بقعة قريبة جلس فيها مقرفصًا ، والهمهمات من حوله تعلو وتنخفض كأمواج بحر غير مستقر ، لابد وأن السجناء يتهامسون عنه الآن .. عن موقف الحارس العدائى منه ، وعن رده المتحدى ، وعن هويته التى لا يعرفها أحد منهم على وجه اليقين وإن كانت ملابسه تشير فى وضوح إلى انتمائه العسكرى ، وأيضًا عن الجريمة التى يمكن أن يكون اقترفها شخص مثله لتودى به إلى هذا المصير المشئوم :

السجن الكبير ..

اسند (حورى) رأسه إلى الحائط من خلفه ، وأخذ يسترجع تفاصيل المهمة المسندة إليه ويتذكر ما جرى ليلة أمس ..

كان يتهيأ للنوم عندما أتاه استدعاء المعلم الأكبر (تحوت) ، عرف على الفور أنها مهمة جديدة لكنه لم يستبق الأحداث ، خمن أن (محب) قد تم استدعاؤه معه بالتأكيد لكنه لم يستبق الأحداث ، توقع أن تكون المهمة عاجلة لا تحتمل تأجيلاً لكنه لم يستبق الأحداث ، وفى صومعة المعلم الأكبر حيث يحترق البخور والصمت والأعصاب عرف أن تخميناته الثلاثة كانت صحيحة ، وأنه لم يستبق الأحداث !

رحب بهما المعلم (تحوت) ترحيبه المعتاد :

ـ أهلاً بزهرتى اللوتس ، أينع زهرتين فى بستان معبدى ..

ارتسمت بسمة شاحبة على وجه (محب) ، أما (حورى) فقد ظل متجهم الملامح ، ولم ينبس أحدهما ببنت شفة ..

ـ .. أرى أن نتائج العمل الجماعى قد أصبحت مثمرة فى الآونة الأخيرة ..

قال (محب) بعينين منتفختين من فرط السهد والتفكير :

ـ إن النتائج مثمرة منذ البداية يا معلمنا ، أعنى منذ عملنا معًا لأول مرة فى كشف سر مقتل الكاهن الأكبر(*) ..

نظر (تحوت) مليًا نحو (حورى) فى دعوة صامتة منه لأن يتحدث ، فتحدث :

ـ لا أجد غضاضة فى العمل الجماعى ما دمنا نحقق الهدف فى النهاية ..

ـ هذا مطمئن ..

قالها الكاهن (تحوت) الغارق خلف لحيته الطويلة البيضاء فى التوحد مع الكون ، ثم تابع :

ـ .. ستعمل الزهور الثلاثة معًا هذه المرة أيضًا ، ربما

(★) راجع العدد الأول من (لوتس) بعنوان (دماء فى المعبد) ، وذلك فى العدد الثانى من السلسلة الأم (سلة الروايات) ..

فى جميع المرات القادمة ، لكن نظام العمل ـ فى هذه المرة بالذات ـ سيكون مختلفًا قليلاً ..

صمت وترقب أردف بعدهما (تحوت) مؤكدًا :

ـ .. مختلف وأكثر صعوبة ..

كان (حورى) من سأل :

ـ هل سيعمل كل منا منفردًا على جبهات ثلاث أم ماذا ؟!

وكان (تحوت) بطبيعة الحال من أجاب ، مخاطبًا (حورى) :

ـ ليس بالضبط سيكون لدينا جبهتان فقط .. ستكون أنت جبهة ورفيقك ورفيقتك جبهة ثانية ، كل منكما فى مكان حتى تلتقيان فى نقطة ..

هزّ (محب) كتفيه قائلاً فى شىء من التهوين :

ـ ليس الأمر مختلفًا ، فقد عملنا بهذا النظام ـ ربما أكثر من مرة ـ من قبل !

ـ الصعوبة فى طبيعة المهمة نفسها يا فتى ..

هتف بها (تحوت) بصوته الجهورى غير المتناسب مع مظهره المتداعى ، فران الصمت حتى خيل للواقفين أن لهتافه رجع صدى :

ـ .. سأبدأ القصة من بدايتهـا ، ليس أمامنـا وقت كثير وقد ضيعنا ما يكفى بالفعل ..

ثم بدأ (تحوت) القصة من بدايتها :

ـ هدفنا هـذه المـرة يقبـع فى صـحراء الشرق ، واسـمه (واحو) ..

انطلق (محب) يقول على الفور :

ـ سمعت بهذا الاسم من قبل ، أليس هذا هو السجين الـذى فر من السجن الكبير إلى الصـحراء ، ليكون على رأس ثلـة من المرتزقة يقطعون طرق القوافل ويسلبون العابرين ؟!

ـ تريث ، فلست تعرف الكثير .. وما خفى كان أعظم ..

قالها (تحوت) ، قبل أن يكمل قصته التى لم يبدأها بعد :

ـ .. (واحو) كان فى الأصل ابنًا لنبيل وشريف من أثريـاء (طيبة) وميسوريها ، وكان من المقربين إلى القصر الملكى نفسه فى عهد الملكة الراحلة (حتشبسوت) .. منـذ عـامين تقريبًا رحل الأب تاركًا ميراثه لـ (واحو) وشقيقه الضـابط برتبة قائد فصيلة فى جيش (طيبـة) الملكى ، وللأسـف لـم يكن (واحو) حكيمًا فتبدد إرثه فى غضون شهور قليلة إلى درجة أنه استدان ..

تساءل (حورى) فى اهتمام :

ـ أكان سيئ السلوك ؟!

ـ على العكس ..

واستمر (تحوت) فى راويته :

ـ .. كان (واحو) متعلمًا ومثقفًا يملك روح فنـان ، كـان يعتنق أفكارًا غريبة ، منها أن الثروة يجب أن تكون مشـاعًا للجميع ، وأن سبب الفقر الرئيسى هو تحكم الأثرياء فى مصائر المحتاجين ، وأن الناس سواسية لافارق بينهم إلا مـا يصنعونه هم بأنفسهم ، وقد استغل من حوله براءتـه ونقـاء سريرته وحلمه بعالم مثالى بلا فقر أو جوع أو مرض ، فأنفق عليهم ثروته المحدودة ، ولما طالبه الدائنون بما لهم وجدوه صفر اليدين ، وهكذا فقد حريته داخـل السـجن الكبير وانتقل مـن نعيم النبلاء إلى حظيرة العبيد ..

هزّ (محب) رأسه فى تفهم قائلاً :

ـ على العكس مرة أخرى ..

واستمر (تحوت) فى روايته :

ـ .. قضى (واحو) شهور السجن فى مشاغبات عنيدة مـع الحراس والسـجناء ، لم يكن مقتنعًا بالقـانون الذى يُفقد الإنسان

حريته لأنه مدان غير قادر على السداد ، وعندما أصدرت الملكة الراحلة ـ قبل أن ترحل ببضعة شهور ـ قرارًا بتجهيز سفينة للعبيد تهديهم إلى جيرانها فى الجنوب ، كان هو من ضمن المختارين ليكونوا على متنها ، وفى رحلة السفينة إلى الجنوب استطاع (واحو) الهرب من على متنها مع ثلة من السجناء ، كون معهم عصابة الصحراء التى تقطع طرق القوافل وتسلب العابرين باسم العدالة ضد الظلم والحرية ضد الاسترقاق وتوزيع الثروة ضد احتكارها ، وتجاهر بعدائها السافر للملك وتتوق إلى خلعة حينما يحين الحين ..

غمغم (حورى) مضيقًا عينيه كأنه يسأل ويجيب على نفسه :

ـ ولم يستطع جهاز الأمن الداخلى أو الخارجى أن يقبض على هذا الـ (واحو) ..

ـ بلى ..

واستمر (تحوت) فى روايته :

ـ أرسلوا فى إثره الحملات تلو الأخرى ، لكنه ـ وعصابته ـ كالزئبق يفرون بمنتهى المهارة ، ويقاتلون فى سبيل قضيتهم فى بسالة منقطعة النظير ، لانعرف لهم حتى الآن مكانًا إذ يظهرون ويختفون كما يحلو لهم وكأن دهاليز الصحراء خطوط أكفهم ..

قال (محب) فى اهتمام قلما يتحدث به :

ـ مهمتنا إذن هى العودة بهذا الـ (واحو) !

هتف (تحوت) فى تأييد :

ـ بالضبط ، لقد تمادى وعصابته فى الآونة الأخيرة إلى حد لم يعد السكوت معه ممكنًا ..

قال (حورى) فى اهتمام يتحدث به دائمًا :

ـ كلى شوق لسماع الخطة الموضوعة ..

نظر (تحوت) إلى (محب) لوهلة قبل أن يقول :

ـ ما دمنا عاجزين عن الذهاب إلى (واحو) ، فلابد أن نجعله يأتى إلينا ..

تساءل (محب) :

ـ وكيف هذا ؟!

أجابه (تحوت) :

ـ بالنسبة للشق الخاص بك أنت والزهرة الثالثة ، فستستدرجانه عبر دروب الصحراء التى يسكنها ، ستتقمص أنت شخصية نبيل فرعونى شاب مملوء بالنزق والاندفاع ،

وهى ستكون جاريتك التى تستعبدها وتسوقها عبر الصحراء لتهديها إلى صديق لك فى (فينيقيا) .

صمت (محب) لوهلة هضم فيها ما سمعته أذناه ، ثم علق بقوله :

ـ تخطيط بارع !

قال له (تحوت) :

ـ ستلتقى بزهرة (منف) صباح الغد فى الشمال ، وعلى الفور سوف تتجهان إلى الصحراء فى انتظار أن يجدكما قطاع الطرق ..

هزّ (محب) كتفيه قائلاً :

ـ لندعو أن يجدونا قبل أن تفعل الوحوش الضارية !

هنا لم يملك (حورى) نفسه واندفع سائلاً :

ـ ماذا عن الشق الآخر الخاص بى ؟!

وجه (تحوت) بصره إليه ، وسكت مليًا قبل أن يقول :

ـ مهمتك أعقد وأخطر ..

قال (حورى) محاولاً مداراة لهفته وحماسه :

ـ كلى آذان ..

ملأ (تحوت) صدره بالهواء ثم زفرة قائلاً :

ـ مهمتك ستكون فى سجن (طيبة) الكبير ، حيث ستجد شقيق (واحو) الذى كان منذ فترة قصيرة يحتل مركز قائد فصيلة فى جيش المملكة !

لم يتمالك (محب) نفسه من الدهشة فشهق شهقة مكتومة ، بينما أطلت من عينى (حورى) نظرات متسائلة ، تطالب المعلم الأكبر بالكثير ..

★ ★ ★

٢ ـ استفزاز ..

انقطع حبل ذكريات (حورى) القريبة عندما حانت اللحظة المناسبة التى يبحث عنها ، فى استناده الساكن على جدار السجن الكبير ..

لم يكد قد مضى وقت طويل على دخوله وانضمامه إلى زمرة المساجين ؛ وهو ما يكفى بالكاد لاسترجاع نصف اللقاء مع المعلم الأكبر (تحوت) فحسب ، عندما دوى الهتاف الأجش من ناحية الهدف الواقع ـ بوضوح نسبى ـ فى مرمى بصره :

ـ أنت لا تأكل أو تشرب منذ أيام يا صاح ، اترك طعامك وشرابك لمن يستحقه إذن ..

صدر الهتاف عن رجل ضخم الجثة ، كثيف اللحية ، مغبر الأعضاء ، تصلصل قيوده المعدنية فى اهتزازاتها معه ، وهو يخاطب سجيناً صامتاً يخفى الظل نصف ملامح وجهه ويكشف الضوء الشحيح نصفه الآخر ، غير أن ملابسه العسكرية التى كانت فاخرة تفصح عن أصواته النبيلة فى جلاء ..

إنه الهدف ليس سواه ، قائد الفصيلة السابق فى جيش (طيبة) الملكى ، الذى قيد إلى غياهب السجن منذ بضعة أيام فحسب ..

تناول السجين الضخم ذو الصوت الأجش الطبق والكوب من أمامه ؛ فى حركات عنيفة تدل على عصبيته وسوء مزاجه ، وهو يتابع هتافه المزعج :

ـ .. إنهم يطعموننا جميعًا ها هنا ما يكفى بالكاد لطفل رضيع !

هنا قرر (حورى) أن يتحرك على الفور ، دون لحظة تأخير واحدة ..

لقد قفز واقفًا ، واتجه فى خطوات سريعة نحو الضخم الذى هم بالتهام الطعام ، وفى حركة مباغتة ركل ـ بقدمه التى مازالت الأغلال تعوقها عن أداء مهامها بحرية ـ الطبق من يده ، والصمت يأكل الهواء إلا من رنين الطبق الذى تناثرت محتوياته فوق الأرض القذرة ..

بهت الضخم لوهلة ، وهو يحاول استجلاء وجه (حورى) فيما بين الضوء والظلام ، قبل أن تحمر عيناه فى ثورة عارمة ، وقبل أن تصدر حنجرته المشروخة الهتاف الرهيب :

ـ ويحك .. هل جننت يا هذا ؟!

قال (حورى) فى هدوء ثابت الجنان :

ـ تحدث بأدب ..

سرت الهمهمات ـ خافتة وعالية ـ بين المساجين الذين تحلقت أعينهم لما يحدث من إثارة غير معهودة ، فى مكان ممل وكئيب كهذا ، وضغط الضخم أسنانه فى قوة كادت تحطمها ، وقد ضم قبضته فى تحدٍ شرس :

ـ يبدو أنك تجهل من تحدثه أيها المأسوف على شبابه !

أشار (حورى) إلى الرجل الذى أخذ الطعام من أمامه ، والذى ينظر ـ كبقية السجناء ـ إلى ما يحدث فى ذهول غير فاهم :

ـ قد أجهل شخصًا وضيعًا إمعة مثلك ، لكنى لا أجهل شخصًا رفيع المقام مثل القائد (سبدو) ، وإليك تحذيرى حتى لا تكرر أفعالك الرعناء هذه مرة أخرى ..

انتظر (حورى) لحظة تنفس فيها الصمت ولهث فيها الضخم كأنه ثور يستعد للهجوم على مصارعه الممسك بقطعة مرفرفة من القماش الأحمر ، ثم :

ـ .. إياك أن تعامل هذا الرجل بالذات المعاملة التى لا تليق به !

كور الضخم قبضتيه وهو يزمجر :

ـ إنك تسير نحو مصيرك الأسود بقدميك فى سرعة واثقة ..

هاف (حورى) بلهجة تجمد الدماء فى العروق :

ـ دع عنك هذا اللغو ، الآن يجب أن تتقدم نحو القائد (سبدو) ، فتنحنى أمامه مقدمًا له فروض الاعتذار عن حماقتك غير المقصودة ..

ـ ماذا ؟!

هتف بها الضخم فى استنكار قبل أن تتصاعد ضحكة ساخرة من أعماقه ، قال على إثرها :

ـ .. يبدو إنهم قد أتوا إلينا بمجنون يا رفقاء ..

ضحك البعض ، وظل البعض الآخر سائرًا على حافة الذهول ، لكن (حورى) قطع كل هذا بلهجته الرهيبة :

ـ أنا لا أمزح .. لو لم تعتذر فستنال من العقاب ما تستحقه ..

هتف فيه الضخم وقد فاض به الكيل :

ـ كف عن هذا الاستعراض الخائب أيها المتفاخر بنفسه ، ودعنى أعرفك بنفسى إن كنت لا تعرفنى .. أنا (رنف) قاطع الطريق ..

قال (حورى) فى إشارة متهكمة لم تخف على أحد :

ـ أنعم وأكرم !

تجاهل (رنف) ما فى لهجته من تعريض ، وأكمل هتافه المزمجر فى إزعاج :

ـ لقد نهبت الكثيرين وقتلت بيدىّ العاريتين هاتين الكثيرين من أمثالك ، دون أن يجرؤ أحد طوال حياتى على أن يحادثنى بهذا التبجح السليط ..

ـ إنك لم تقابل رجالاً طوال حياتك إذن ..

علت الهمهمات إثر تهكم (حورى) الممتد ، فنهض بقامته القصيرة نسبيًا وجسده المكتنز بالشحوم ليقف فى مواجهته (رنف) ، ولتتلاقى العيون المشتعلة ..

لم يهتز (حورى) فى وقفته الثابتة ولم يتحرك أنملة ، فيما ضم (رنف) قبضتيه المقيدتين وهو ينهال بهما فى اتجاه خصمه :

ـ دع (رنف) يلقنك درسًا أيها الغر ، لاتتحدى إلا الحشرات من أمثالك ..

بحركة رشيقة تنحى (حورى) عن طريق اندفاع (رنف) ، الذى وجد نفسه يسبح فى الهواء ليسقط بين السجناء فوق الأرض ..

ـ الحشرات فقط هى التى تسقط يا قاطع الطريق !

قالها (حورى) وهو يبتسم فى نشوة ، بينما تحامل (رنف) على السجناء من حوله ليقف فى النهاية ، ماسحًا بذراعه القاذورات التى تعلقت بوجهه ، وهادرًا كالبركان :

ـ جررررر .. سأقتلك أيها اللعين ، سأقتلك ولو كان هذا آخر ما أفعله فى حياتى ..

ثم عاد يلقى بجسده الضخم نحو (حورى) الذى انتظر فى وقفته الثابتة ، ناظرًا نحوه بعينين تلوح فيهما أقصى آيات الاستهانة ، حتى بدا وكأن (رنف) سوف يصطدم به لامحالة ..

لكن لحظة غيرت كل شىء ..

لحظة قفز فيها (حورى) ، دائرًا بجسده فى الهواء دورة كاملة ، استند فى نهايتها على رأس (رنف) نفسه المندفع نحوه ، قبل أن يستقر على قدميه خلف ظهره فيما اندفع الجسد الضخم فى الهواء مرة أخرى ليسقط بين ثلة أخرى من السجناء المقابلين ..

عقد الذهول ألسنة الجميع ، وهم يرمقون (حورى) الواقف كأنه لم يفعل شـيئًا خارقًا ، و(رنف) يتحامل على السـجناء مرة أخرى ليقف لاهثًا ، وقد تلوث مرة أخرى بالقاذورات ، وبالدم السائل من أنفه هذه المرة ..

ـ هيا ، الخطأ للمرة الثالثة على التوالى يازعيم اللصوص !

تقدم (رنف) ببطء هذه المرة بقبضتيه المضمومتين داخل الأغلال ، وعندما أصبح مواجهًا لـ (حورى) قال لاهثًا :

ـ صدقت ، لن أكرر خطئى ..

ثم انهال بقبضتيه على صدر خصمه هاتفًا :

ـ خذ هذه أيها الـ ....

لكن القبضتين اصطدمتا بجدار من الفولاذ : قبضتا (حورى) المقابلتين ..

ـ طلبت منك من قبل أيضًا أن تتحدث بأدب ..

قالها (حورى) وهو يقرب وجهه من وجه (رنف) الذاهل الغارق فى الوحل والدم ..

قالها ثم رفع قبضتيه موجهًا لكمة ساحقة إلى وجه (رنف) ، ترنح على إثرها كالمخمور ، ثم هوى كثور كثرت الحراب القاتلة فى ظهره ..

حتى الأنفاس لم يُسمع لها صوتًا ، وقد اتسعت أعين السجناء ذهولاً إذ يرون ما لم يحلموا بحدوثه من قبل : (رنف) المهزوم !

لكن (حورى) لم يكتف بهذا ، فقد اتجه نحو (رنف) ليجذبه من ملابسه فى قسوة ، ويجرجره على الأرض إلى حيث يجلس (سبدو) ، وإذ بلغاه جذب (حورى) (رنف) من شعره الطويل ، ليواجه وجهه الضخم بقناع الدم والقذرة وجه القائد بقناع الوجوم والدهشة ، ثم أصدر (حورى) أمره بلهجة باردة قدت من صهر أصم :

ـ الآن يجب أن تعتذر للقائد ..

لم يقو (رنف) على التحدث ، فلكزه (حورى) فى استحثاث :

ـ .. هيا ، تعلم أن تمتثل للأوامر يا هذا ..

قال (رنف) بصوت يشبه الخوار الأخير :

ـ أنا .. آسف ..

وعاد وجهه يغوص فى أرض السجن القذرة بعد أن أفلت (حورى) شعره، ووقف الأخير أمام القائد ذى الوجه المربع والعينين الزرقاوين والشعر الرمادى، محييًا إياه بالتحية العسكرية :

ـ الضابط (حورى) فى خدمتك يا سيدى القائد (سبدو) ..

فى نفس اللحظة انفتحت بوابة السجن، وأطل الحارس الثانى هاتفًا :

ـ ما سبب هذه الضوضاء، هل صرع (رنف) سجينًا آخر أم ماذا ؟!

عجز السجناء عن الحديث، ولم يصدق الحارس بطبيعة الحال ما رأته عيناه، أما (حورى) فقد جاهد لمنع نفسه من الابتسام ـ وقد عاد للجلوس فى مكانه الأول ـ غائصًا فى ذكرى لقائه مع المعلم (تحوت) ..

ـ سجن (طيبة) الكبير ؟!

تساءل (حورى) فى دهشة، فهز المعلم (تحوت) رأسه بالإيجاب :

ـ أجل ..

ـ وما علاقة قائد فصيلة فى الجيش بالسجن ؟!

ـ إنه سجين هناك !

ـ سجين ؟!

ـ أجل !

لاح عدم الفهم فى عينى (حورى) و(محب) على حد سواء، فقال المعلم (تحوت) :

ـ سيكون هو الوسيلة الثانية لاستدراج (واحو) إلينا ..

لاح عدم الفهم فى عينى (حورى) و(محب) مرة أخرى، فلم يجد (تحوت) بدًا من التفسير :

ـ .. منذ عدة أيام تم القبض على القائد (سبدو) شقيق (واحو) المطلوب القبض عليه، وذلك بتهمة الخيانة والتآمر على خلع الملك (تحتمس)، لم يتم التحقيق الكافى فى الأمر لكن تم الاستناد على كونه شقيقًا لـ (واحو) المعروف بتطلعه إلى أن يفعل، وهكذا فقد تم إيداعه فى السجن الكبير فاقدًا لمركزه وحريته ..

تساءل (محب) :

ـ هل لـ (سبدو) ميول سياسية تشابه ميول أخيه ؟!

كانت المفاجأة أن :

ـ كلا .. إنه من أكثر المخلصين للجيش وللملك !

ذهل (حورى) وهذا حقه ، غير أنه حاول أن يمنطق الأمور :

ـ لعلك تعنى أن هذا كان مجرد غطاء لأفكاره الحقيقية فقط ، معلم (تحوت) ..

كانت المفاجأة أن :

ـ بل هو جوهر معتقداته الأصيل ، إنه من المعارضين تمامًا لمواقف أخيه ، ومن أشرف العاملين فى سلك الجندية وأكثرهم التزامًا ، الجميع يعرفون عنه هذا لذا فقد صدم الكثيرون عندما تم القبض عليه وانتشر الخبر فى أنحاء البلاد مصحوبًا بالتعجب حينًا والاستنكار أحيانًا ..

هزّ (محب) رأسه قائلاً فى تفهم :

ـ هذا هو المطلوب أذن ..

نظر إليه الاثنان فأكمل :

ـ .. أن ينتشر الخبر !

ـ لمحة ذكية ، فما تقوله صحيح ..

قالها (تحوت) ثم استطرد :

ـ .. عندما ينتشر الخبر فربما يؤدى لظهور هدفنا الحقيقى..

ردد (حورى) هازًا رأسه فى تفهم بدوره :

ـ (واحو) ..

ثم إنه غمغم كالمحدث نفسه :

ـ .. إن (سبدو) أداة الإيقاع بأخيه إذن ..

هنا نظر (تحوت) إليه مؤيدًا حديثه ومتمتمًا إياه :

ـ وبنفس الطريقة التى لاذ بها هذا الأخ بالفرار

ثم إنه وجد عبارته غير مفهومة ، فقام بإيضاحها مخاطبًا (حورى) بالذات :

ـ .. المهمة باختصار ، ستنضم إلى نزلاء السجن الكبير صباح باكر ، على أنك ضابط شاب فى الجيش تم القبض عليه بسبب المشاكل التى يثيرها فى صفوف الضباط والجنود وهناك يجب أن تجد (سبدو) وتلازمه كخياله ..

سأل (محب) فى استبعاد :

ـ وهل يمكن أن يتسلل (واحو) إلى سجن (طيبة) لإنقاذ أخيه ؟

قال (تحوت) بعد برهة من السكوت :

ـ طبيعته لا تتنافر مع تصرف أرعن كهذا ، لكننا سوف نجعل مهمته أسهل ..

ثم عاد يستطرد :

ـ .. السجناء ـ كما تعلمان ـ هم عبيد الملك ، يمكنه التصرف فيهم كيف شاء يمكنه بيعهم فى السوق أو دفعهم للعمل فى المناجم البعيدة أو حتى يجعلهم يحرثون الأرض ويزرعونها ، يمكنه أيضًا أن يهديهم إلى من شاء أينما شاء ، وهذه هى النقطة التى سوف نبنى عليها الشق الثانى من المهمة ، ففى الصباح سوف يصدر مرسوم ملكى بإهداء عدد من العبيد السجناء إلى ملك (فينيقيا) كعربون صداقة وتفاهم ، هؤلاء العبيد سوف يتضمنون قائد الجيش والضابط الشاب الذى دخل السجن فى الصباح ، وهؤلاء العبيد سوف يتم وضعهم فى سفينه كبيرة ، تقلهم عبر النهر المقدس حتى المصب فى أقصى الشمال ، وعبر البحر سوف يكون العبور إلى سواحل جارتنا (فينيقيا) ..

قال (محب) :

ـ هكذا يتضح الأمر ، لن يقاوم (واحو) كل هذه الإغراءات حتى يظهر ، فإذا ظهر ..

ضرب (محب) قبضته فى راحته وهو يكمل فى حماس :

ـ .. نضرب نحن ضربتنا ..

قال (تحوت) :

ـ المهم أن نضربها بنجاح ..

نظرة إلى (محب) :

ـ .. سواء فى عبور الصحراء ..

ونظرة أخرى إلى (حورى) :

ـ .. أو على متن سفينة العبيد !

★ ★ ★

ـ إذن فالخبر صحيح ..

شمس محرقة ، ورمال حارقة ، وعينان يندلع فيهما حريق ..

ـ صحيح ، قائد (واحو) ..

قالها رجل طويل له شارب كث ، يمسك بلجام حصانه ، ويبتلع ريقه فى خفوت ليتابع محاولاً السيطرة على اضطرابه :

ـ الأنباء سارية فى طيبة منذ صباح الأمس ، وقد رأيت بعينى السفينة التى يجهزونها بجوار السجن الكبير لتحمل العبيد عبر النهر إلى الشمال .. إنها نفس السفينة التى هربنا منها يا سيدى !

(واحو) ليس ضخمًا وليس ضئيلاً ، إنه مرحلة وسطى يعطيها رداء الفرسان المعدنى أكبر من حجمها ، وصوته الغليظ يساهم فى هذا أيضًا ، خاصة حين يكون غاضبًا :

ـ لن أصمت إزاء هذا ، لن أصمت أبدًا .. سأجعلهم يندمون أشد الندم على ما فعلوه بى ، ويفعلونه الآن بأخى ..

ـ عذرًا ولكن ..

أتى الهتاف من بين الرجال (واحو) الجالسين فوق خيولهم ، فالتفتت الأعين جميعها نحو الفارس ، الذى تابع بعد أن جذب نداءه انتباه من حوله جميعهم :

ـ أشعر يا سادة أن الأمر غير مريح بعض الشىء ..

ساد لغط بين الفرسان ، واتعقف حاجبا الطويل ذى الشارب وهو يردد مستهجنًا التعبير :

ـ ماذا تعنى بالضبط يا (باتوب) ؟!

قال (باتوب) وهو يدور بجواده بين الفرسان كأنه يتحدث بالكلمة والحركة معًا فى آن :

ـ لا أقصد التشكيك فى حرف واحد من أنبائك يا عزيزى (كارع) .. أنت عيننا الأمينة على ما يحدث فى (طيبة) ونزاهتك ليست موضع جدل .. إننى واثق فى صحة كل حرف تقوله ، لكنى أشك فى أنهم يمررون هذه الأنباء لنا لكى يدفعوننا إلى التحرك بطريقة خاطئة .

هتف (واحو) بصوته الغليظ مقطبًا :

ـ فسر كلامك أكثر يا (باتوب) حتى يستطيع الجميع أن يفهموك ..

انطلق لسان (باتوب) يسبق حركاته بين الفرسان :

ـ ما زالت السلطات فى (طيبة) عاجزة عن اقتفاء آثارنا التى نجيد إخفائها فى رمال الصحراء ، ما زالوا عاجزين عن تحديد موقع معسكرنا هذا الذى نغيره كل عدة أيام ، إننا

خفيون بالنسبة إليهم وهـذه نقطـة تفوقنـا ، أتصور أنهـم يريدون عـن طريق الخداع أن يفقدونا هذه الميزة الرهيبـة فينقضون علينا كريح صرصر لا تبقى ولا تذر ..

هتف (كارع) مستنكرًا ، وقد لمس الحديـث كرامتـه من بعيد :

ـ أى خداع تقصد ؟! لقد رايت كل شىء بنفسى .. رأيـت القـائد (سبدو) وهـو يقتـاد إلـى السـجن ، ورأيت السـفينة جاهزة لنقله اليوم ، ربما الآن ..

هتف (باتوب) من خلف الفرسان كأنه يتخذ منهم ستارًا واقيًا :

ـ إن القائد (سبدو) ليس منا وليس مؤمنا بما نحـن بـه مؤمنون ، ألا يمكن أن يكون قد تحالف معهم لخداعنا ؟!

عاد اللغط يسود ، وضاعت غمغمة (واحو) لنفسه :

ـ أعرف أخى جيّدًا ، وهو لن يفعلها ..

ثم إنه رفع يمناه هاتفًا فى الجميع :

ـ .. صـمت !

فساد الصمت ، وتركزت نظرات الأعين فوق وجه (واحو) المربع وهو يهتف :

ـ .. ربمـا كان كـلام (باتوب) منطقيًا من ناحية العقل ، لكنـى أعرف أخى جيّدًا .. ربما يكون رافضًا لأفكارى ومعتقداتى ، لكنهم لن يقتنعوه أبدًا على أن يكون وسيلة للإيقاع بى ، بل إنـى أعتقد أنهم قد قبضوا عليه لأنه رفض الاشتراك فى فخ كهذا !

قال (باتوب) من موقعه بين الفرسان وهو يعقد حاجبيه :

ـ أخى (واحو) .. صحيح أنك القائد هنا باختيارنا جميعًا ، لكنك عودتنا أن لا أحد فوق الجدل والنقاش ، بل والمحاسبة إن أخطا ، فهل سيتسع صدرك لما سوف أقول ؟!

هتف (واحو) فى ثقة :

ـ بالتأكيد ..

ـ أتمنى ألا يكون الغضب الذى سببه فى نفسـك اعتقال أخيك استعباده قد أعمـاك إلى درجـة الـزج بنـا فى قضيـة انتقام شخصى ، إن قضيتنا التى نحارب من أجلها فى هذه الصحراء ، والتـى تركنـا الأهل والمـال والولد فـى سبيلها ، لهـى أهـم وأسمى من جميع النزعات الشخصية .. أم هل أنا مخطئ ؟!

ـ كلا ، لست مخطئًا على الإطلاق يا عزيزى (باتوب) ..

قالها (واحو) بنفس الثقة ، ثم إنه وقف ممسكًا بجواده إلى جوار (كارع) ، مخاطبًا الجميع بلهجته الحماسية التى يجيدها منذ أصبح قائدًا لهؤلاء :

ـ .. دعونا نفكر لحظة ، ليست القضية واحدة ؟! هناك سفينة للعبيد ، تمثل هدفًا من أهدافنا ، كأنها قافلة أخرى من قوافل الصحراء .. هناك على هذه السفينة أحرار استرقوهم مثلما كانوا سيفعلون بنا .. الأكثر من هذا أن هناك على هذه السفينة قائد فصيلة فى جيش (طيبة) تعرض لذل الأسر ومهانة العبودية ، يمكننا أن نكسبه فى صفوفنا فنقوى به ويقوى بنا ، هذا القائد هو أخى بالصدفة وحدها .. قولوا لى إذن : أليست القضية واحدة ؟!

أليست كذلك ؟!

التمع الحماس مع انكسار ضوء الشمس فى زجاج العيون ، وآثر (واحو) الاستمرار قبل أن يجف نبع الإلهام :

ـ .. من كان منكم يخاف الظهور لهم ، ومن كان غير مؤمن بعدالة القضية ، ومن راودته نفسه عن التقاعس ظنًا بأنها مسألة ثأر فردى ، فلينتظرنا ها هنا حتى نعود بالثوار الجدد .. هيا ، قولوا لى من معى ؟!

دوت الهتافات فى كبد الصحراء ، الهتاف تلو الآخر ..

رفع الجميع أياديهم ، بمن فيهم (باتوب) الذى لم يرد أن يشذ عن القاعدة فيظن به من حوله الظنون ..

ـ .. استعدوا إذن للرحيل نحو النهر فى الغرب ، هيا يا رجال ..

وبدأ الاستعدادات على الفور ..

تفرقت الخيول والفرسان هنا وهناك لطىّ الخيام وجمع أدوات المعيشة ..

وفى السر التقت نظرات (كارع) الظافرة مع نظرات (باتوب) القلقة ، أما (واحو) فقد كانت نظراته النارية معلقة بالغرب ..

فى شرود ..

★ ★ ★

٣ ـ سـفينة ..

خرج العبيد فى صف طويل من بوابة السجن الكبير حتى ضفة النهر ، حيث ترسو السفينة الكبيرة المصنوعة من الخشب ، تلك التى تتدلى على جانبيها المجاديف الطويلة وتنبعج مقدمتها ومؤخرتها فى مشهد بهى .

تراص السجناء فى قيودهم وأسمالهم الرثة ، أعينهم نصف مغلقة من وهج الشمس الذى لم يعتادوه وصدورهم تواقة لهواء الحرية النقى ، ومن حولهم تحلق العامة والدهماء ينظرون ويتهامسون ، فيما مر كبير حراس السجن أمامهم يتحدث هاتفًا فى شدة :

ـ الآن اسمعونى جيّدًا يا عبيد مولانا الملك (تحتمس) ، إنكم الآن لستم بشرًا .. إنكم ممتلكات يسرى عليكم ما يسرى على الممتلكات من قوانين .. وقد قرر الملك إهداء البعض منكم إلى صديقه ملك (فينيقيا) ، وأمرنى ـ شخصيًا ـ أن أختار الأفضل منكم والأجود حتى تليق الهدية بمقام المهدى إليه .. والآن يبدأ الانتقاء ..

ثم إنه أخذ يتفحص الواقفين واحدًا تلو الآخر وعلى شفتيه تسرى الكلمات :

ـ أنت إلى السفينة .. أنت لا .. أنت إلى السفينة .. أنت لا .. أنت ..

وهكذا كان من يقع عليه الاختيار ليركب السفينة يتقدم خطوة أو اثنتين ، فيتلقفه حارسا السجن ويدفعانه إلى متن السفينة ، وهناك يُجلسه حارس ثالث على المجداف المخصص له فى رحلة الذهاب بلا عودة ..

ـ أنت ، إلى السفينة ..

قالها كبير الحراس فى غلظة فتقدم القائد (سبدو) إلى حارسى السجن ، ليلقياه مع الباقين إلى القاع بين المجاديف ..

ـ وأنت ..

قالها كبير الحراس فى غلظة فتقدم (حورى) إلى حارسى السجن بينما الأول يواصل :

ـ .. إلى السفينة ..

وبحركة خفية غمز كبير الحراس (حورى) ، الذى ابتسم دون أن يبادله الغمز ، وقد اطمأن إلى أن الأمور تسير فى مجراها كما خُطط لها وأفضل ..

أمسك الحارسان ـ اللذان أدخلا (حورى) السجن منذ ساعات قليلة ـ بذراعى (حورى)، وهتف الحارس الأول فى سماجة :

ـ مرحى .. هو ذا صديقنا المشاغب العنيد يجد نفسه عبدًا فوق سفينة تذهب به إلى (فينيقيا) ليعيش هناك ويموت فى خدمة الأسياد !

قال (حورى) دون أن تزول بسمته :

ـ كلما نظرت إليك أيها الحارس يتملكنى شعور واحد لا أجد منه فرارًا ..

مد الحارس يده ليدفع بها كتف (حورى) نحو السفينة سائلاً فى غبطة :

ـ أعرفه .. إنه الحسد بالتأكيد ..

مد الحارس الثانى يده أيضًا ، لكن (حورى) سبقهما بقوله :

ـ كلا .. إنه الإشفاق ..

وبحركة ماهرة استدار (حورى) بكتفه دافعًا الحارس الأول من فوق حافة المرسى ، فاختل توازنه وصاح صيحة رعب هائلة وهو يسقط بمنتهى السرعة فى مياه النهر ..

ـ .. أو لنقل إنه الغثيان !

اتسعت بسمة (حورى) وهو يقولها ، ناظرًا إلى الحارس الذى أخذ يجاهد الماء بيديه فى عشوائية ، صائحًا :

ـ أنقذونى .. أنا لا أعرف السباحة !

فيما اتسعت عينا الحارس الثانى وهو يحدق فى زميله غير مصدق !

هتف كبير الحراس وقد راعه ما يحدث :

ـ ما هذه الفوضى ؟! أين ذهب الحارس ؟!

من بين العامة المتحلقين اندلعت ضحكات وتصفيقات وتعليقات ساخرة بينما استدار (حورى) نحو الحارس الثانى مغمغمًا فى لهجة ذات مغزى :

ـ عندما يخرج أخبره أننى قد بررت بوعدى ، وأننى ـ بالفعل ـ لا أنسى ثأرى أبدًا ..

وقفز (حورى) إلى السفينة قفزة رشيقة، واتخذ جلسة خلف أحد المجاديف السائرة فى فتحة دائرية نزولاً نحو سطح النهر ، بينما فم الحارس ما زال مفغورًا فى بله !

ـ هل كنت أحد ضباط فصيلتى يا هذا ؟!

أتى السؤال من جانب (حورى) تمامًا ، وأدرك (حورى) أنه كان مصيبًا فى اختيار هذا الموقع بالذات ، لصق القائد (سبدو) الذى بدأه بالسؤال ، بينما عملية انتقاء العبيد وإنقاذ الحارس الثانى لا تزال دائرة فى الخارج ..

همس القائد (سبدو) بالسؤال ، فالتفت إليه (حورى) باسمًا وهو يقول :

ـ (حورى) .. أدعى الضابط (حورى) يا سيدى القائد ..

ضيق (سبدو) عينيه الزرقاوين وهو يواصل همسه الحذر من شىء لا يعرفه :

ـ لا أذكر أننى رأيتك من قبل ..

قال (حورى) محافظًا على لهجة التبجيل والإجلال فى حديثه :

ـ ذلك لأنك لم ترنى من قبل بالفعل يا سيدى القائد ..

ضيق (سبدو) عينيه أكثر قائلاً فى مناورة :

ـ لماذا إذن اندفعت مدافعًا عنى بهذه الحميا ؟!

أجاب (حورى) فى أداء تمثيلى مقنع :

ـ ذلك لأنى ـ بعكسك ـ أعرفك حق المعرفة ، وتعين على أن أمنحك حق قدرك حتى فى مكان حالك كالسجن الكبير ..

لم يعد فى وسع عينى (سبدو) أن تضيقا أكثر :

ـ لماذا أشعر أننى لا أفهمك أيها الضابط ؟!

انطلق (حورى) :

ـ أنا ضابط فى فصيلة أخرى من فصائل جيش (طيبة) الملكى يا سيدى القائد ، أحد أبناء الشعب العاديين ، كان والدى فلاحًا بسيطًا وكانت والدتى مثله ، وإخوتى شق كل منهم طريقه المختلف فى معترك الحياة .. اخترت أنا سلك الجندية وانخرطت فيه عن محبة وعن اقتناع ، أبليت فى المعارك بلاء حسنًا فأوغر هذا علىّ صدور من حولى ، وأولهم قائد فصيلتى ، كنت أتطلع دائمًا إليك يا سيدى القائد كمثل أعلى ، نموذج أحب أن أقتدى به وأن أحتذيه ، ولم أكن أعرف أن هذا أقرب إلىّ من حبل الوريد .. بعد أن اعتقلوك ببضعة أيام فقط ، وأنا واثق أنها مؤامرة ممن يحقدون عليك ـ كما حدث معى ـ وجدت نفسى معك فى نفس السجن ، مدان بنفس التهمة التى أدخلتك إليه ، التآمر ، وفى الحقيقة أننى مثلك ضحية مواهبى التى لم تجد من يقدرها ،

بل وجدها البعض ذريعة توجب التخلص منى قبل أن أنمو وأصبح خطرًا على الآخرين الأقل منى موهبة ، لكنهم أسود منى قلبًا فى نفس الوقت ..

ظل (سبدو) صامتًا بعد أن أنهى (حورى) قصته للحظات ، ثم غمغم بنصف قناعة :

ـ أنت موهوب بالفعل ما فى هذا من شك ، لكنى أشك أنك تخفى تجاهى شيئًا أكبر من مجرد الإعجاب والاحتذاء كما تقول ، فما أنا بربع موهبتك يا فتى ..

قال (حورى) باسمًا :

ـ على الأقل أنت رجل تقدر المواهب ، لا تقتلها كما يفعل الآخرون يا سيدى ..

تنهد (سبدو) فى مرارة وحرارة ، قبل أن يتفوه بكلمة واحدة :

ـ ربما ..

ثم تحلى بالصمت ، الذى حاول (حورى) أن يحطمه بقوله :

ـ لا تقلق يا سيدى ، مثلك لن يظل فى أسر العبودية طويلاً .. سنعرف بطريقة أو أخرى كيف نحطم هذه الأغلال التى وضعها من هم أقل منا حول معاصمنا ..

لكنه لم يفلح ، فقد نظر إليه (سبدو) نظرة بلامعنى ، ثم عاد ينكمش على نفسه ..

ويتوحد مع خواطره ..

ربما كان يظنه جاسوسًا مدسوسًا عليه ، هكذا قال (حورى) لنفسه ووجده تأويلاً مقنعًا ، فقنع بالصمت لبعض الوقت هو الآخر ، وأخذ يتفحص مجدافه فى اهتمام غير مصطنع ..

ـ والآن يا عبيد الملك أصغوا إلى ..

رفع عقيرته بها رجل أسود عند مقدمة السفينة ، يرتدى زى البحارة ويلوح بيده عاليًا بينما الأخرى مستندة على ابعاج المقدمة البهى ..

ـ .. الأن تبدأ رحلتنا نحو مالككم الجديد ملك (فينيقيا) ، سأكون على رأس هذه السفينة حتى تصل إلى بر الأمان ، وعليكم أن تسمعونى وتطيعونى ، لأن حيواتنا جميعًا ستكون بين يدى نهر وبحر ، والنهر إن كان وادعًا فالبحر غدّار ، تارة هادئ كعينى حبيبة وتارة هادر كغضب الإله !

ثم إنه أشار نحو الشمال متابعًا :

ـ .. هيا سنسير فى اتجاه الريح نحو الشمال .. سنرفع الشراع وليبدأ الإقلاع ..

رفع الشراع وبدأ الإقلاع ، حرك العبيد مجاديفهم بكل ما أوتوا من قوة ، وتحركت السفينة نحو مصيرها بين يدى نهر وادع وبحر غدار ..

جدّف (حورى) بإخلاص ، وعندما أرسل بصره إلى جاره القائد (سبدو) رآه يجدف بإخلاص هو الآخر ، التقت نظراتهما وتبادلا بسمة صداقة طرب لها قلب (حورى) ..

لقد بدأ فى نيل ثقة الرجل وهى خطوة لا يستهان بها أبدًا ..

لم يلاحظ (حورى) الجالس فى منتصف السفينة ما كان يدور فى مؤخرتها ، ولم يلتفت ولو مرة ؛ إذ كان هدفه إلى جواره ..

فى مؤخرة السفينة ، وقبل ابتعاجها الأخير البهى ، وجلس عبدّ يجدف بقوة تأججها نيران سوداء فى قلبه وعقله ..

عبد ضخم الجثة ، كثيف اللحية ، مغبر الأعضاء ، ملامح وجهه ضائعة بعد معركة مضنية خاضها منذ ساعات ، وهُزم فيها شر هزيمة ..

عبد يدعى ..

« (رنف) لا يُهزم فى حرب أيها المختال بنفسه .. »

غمغم بها من بين أسنانه الحانقة ، وأخذ يجدف ويجدف كأنه ينفث غيظه فى تحريك المجداف بكل ما أوتى من قوة ..

لم يكن يحس بشىء ، ولم تكن أمام عينيه إلا صورة واحدة وكلمة وحيدة ..

صورة (حورى) ..

وكلمة الانتقام ..

★ ★ ★

صهل الحصان فى وقفته إلى جوارها ، فوضعت (نفرو) أمامه طبقًا به بعض المياه ، ثم التفتت بناظريها إلى الصخرة العالية القريبة ، حيث كان (محب) يقف فوقها معرضًا رأسه للشمس اللاهبة التى بدأت تتوسط سماء الصحراء الصافية ..

ـ احترس ، يمكن أن تصاب بضربة شمس ..

هتفت به فى ابتسامة ، فنظر نحوها مغتصبًا بسمة باهتة وهاتفًا فى لهجة بلا روح :

ـ دعيها تضربنى ، فما لجرح بميت بإيلام !

اقتربت منه ، خارجة من حيز الظل الذى يلقيه فوقها ـ هى

والحصان ـ المرتفع الصخرى الحاد ، وقد كانا قررا أن يستريحا قليلاً فى فيئه من وعثاء الرحلة ، وهتفت فى مرح لآ يتناسب مع حرارة الجو ، أو حرارة قلب (محب) :

ـ أراك ما زلت على قيد الحياة ..

غمغم لنفسه ما لم تسمع به :

ـ أه لو تدرين ما بى ..

ثم هتف بها وقد اقتربت منه حثيثًا :

ـ أراك قد تركت الظل أنت الأخرى ..

قالت وهى لا تزال تبتسم ، مشيرة إلى ظل المنحدر الصخرى ثم إليه على التوالى :

ـ إما أن نعود معًا أو تضربنا الشمس معًا ..

نظر إليها متسائلاً فى جدية :

ـ تمزحين ، أليس كذلك ؟!

لم تجبه ، وتجاهلت جديته مواصلة التحدث بنفس المرح الغارق فى الطفولة :

ـ لا أعرف ما الذى يعجبك فى الوقوف وحيدًا ها هنا ، أعرف أن مزاج الفنانين ليلى ، وأنهم لا يطيقون العزلة إلا فى سبيل الفن أو التفكير !

تنهد (محب) فى عمق ، قبل أن يضيف إلى ما قالته :

ـ أو الحزن ..

زوت حاجبيها الجميلتين سائلة فى دهشة :

ـ عجبًا .. فيم حزنك يا فتى ؟!

وضع (محب) كفه على صدره ثم على رأسه قائلاً :

ـ قلبى يؤلمنى ، ورأسى يقبع فى داخله قنفذ كثير الشوك ..

تجاهلت (نفرو) شطر عبارته الأولى ، وتساءلت دون أن ينفك انعقاد الحاجبين الجميلين :

ـ وما سر ألم العقل إن كانت الدنيا كتابًا مفتوحًا أمامك ؟!

ـ للأسف ، إنها ليست كذلك ..

قالها (محب) بعد إذ تنهد عميقًا للمرة الثانية ، ثم أتبع سائلاً :

ـ .. هل تستطيعين أن تجيبنى عن السؤال الذى يؤرقنى فى الليل والنهار ؟!

ـ أى سؤال هذا ؟!

أجابها سؤالها عن السؤال بسؤال :

ـ سؤال الغد ..

ـ ما زلت أنتظر السؤال ..

ـ ما الذى سوف يحمله لنا الغد ؟!

ـ هذا السؤال لا يوجد بشرى يستطيع إجابتك عنه ، الغد ليس فى أيدينا أو أمام أعيننا حتى نستطيع أن نجيب على الأسئلة المتعلقة به ..

ـ كل البشر فى كفة ، وزهرات (لوتس) فى كفة أخرى ..

ـ ماذا تعنى ؟!

ـ ما هو مستقبل زهرة (لوتس) مثلى ، أو مثلك ؟!

ـ مستقبل زهور الأرض معروف ، البذر والتبرعم ثم الينوع وأخيرًا الذبول ..

ـ لكن البشر ليسوا زهورًا ، البشر بشر ..

ـ حيرتنى معك ..

ـ أرأيت ؟!

ـ حاول أن تكون أكثر تحديدًا ..

ـ سأحاول .. كل البشر يا عزيزتى يعيشون حياة بسيطة ، يولدون ، يكبرون ، يتزوجون ، ينجبون ، يتعارفون ، يتشاجرون ، يختلفون ويشتبهون ، يخطئون ويصيبون ، يعملون ويُرزقون ، يشيخون وفى النهاية يموتون ..

ـ ونحن ـ زهرات (لوتس) ـ لسنا كذلك ؟!

ـ نعم ، لسنا كذلك .. كل شىء فى حياتنا سر مجهول ، الأمس واليوم الغد .. مصيرنا ليس بأيدينا ، يتحكم فينا الكهنة الذين جعلوا منا زهورًا .. هل تعرفين شيئًا عن ماضيك يا عزيزتى ؟! والديك أو إخوتك أو ؟!

ـ لست فى حاجة لأن أعرف ، يكفينى يومى وغدى ..

ـ أين هذا اليوم ؟! وأين هذا الغد ؟!

ـ هل تفكر فى التمرد على كونك زهرة (لوتس) ؟!

ـ لا أستطيع .. لكنى فقط أتساءل عن المصير ..

ـ إن كنت تسأل عن الغد فأنت لا تزال شابًا والاختيار ما زال فى يديك ..

ـ هراء .. أنا لم أختر أن أكون زهرة (لوتس) من الأصل ، وكيف أختار إذن أى شىء آخر ؟!

ـ أعرف زهرات (لوتس) من زميلاتى فى معبد (منف) تزوجن وأنشأن حياة ، ويزرننا سرًا فى أروقة المعبد بين حين وآخر ..

ـ هذا سؤال آخر لا بأس به على الإطلاق ..

ـ أى سؤال تقصد ؟!

ـ سؤال الحب ..

ـ هل أنت واقع فى الحب ؟!

لم تدر ما الذى جعلها تسأله وهى ـ تقريبًا ـ تعرف الإجابة ، غير إنه أجابها فى صراحة وعلى الفور كأنها لحظة الصراحة قد أحالت الحواجز بينهما وهمًا بلا وجود :

ـ نعم ، قلبى يخفق بالحب لكنى أجهل المصير ..

ـ الحب مصير ..

ـ كيف يحب من لا يملك الاختيار ؟!

ـ الحب ليس اختيارًا ..

ـ وهكذا تنغلق الدائرة ونعود من حيث بدأنا ..

صمت (محب) للحظة ثم نظر إلى (نفرو) مباشرة وقال :

ـ .. ربما لاتكون الصحراء هى المكان المناسب ولامنتصف القيلولة هو الزمان المناسب ، لكننا بالفعل لانملك الاختيار .. لذا ..

فجأة حدث كل شىء كأنه حلم خارج حدود الواقع ..

فجأة تلاشت الأمكنة وانسحقت الأزمنة ..

وجدت (نفرو) يدها بين راحتى (محب) وهو يقول :

ـ .. (نفرو) .. أحبك .. فهل تبادلينى نفس الشعور ؟!

ارتعد جسدها ..

شعرت بأنها غير موجودة ، وأنها تنظر إلى نفسها من الخارج ، من نظرة طائر فى السماء وتضحك من بلاهتها وتجمد وجهها الجميل الذاهل ..

ـ .. هل كان الأمر صادمًا إلى هذا الحد ؟!

سألها ولم تجب ..

كل شىء متجمد كأنهما أصبحا خارج الحياة ، داخل فقاعة هشة فى عالم من عدم ..

وجدت نفسها تقول وهى فى حالة قصوى من انعدام الوزن :

ـ ما هذ الذى تقوله يا (حورى) ؟!

وانتبهت إلى خطئها الفادح ، بعد فوات الأوان ..

ـ يا .. ماذا ؟!

بعد فواته تمامًا ..

أجابت على سؤال (محب) المصعوق بلعثمة وخدين تحرقهما حمرة الخجل :

ـ إ .. أ أعنـ .. أعنى .. ماذا قـ .. قلت .. تقول .. يا .. (محب) ؟!

ـ لا أقول شيئًا ..

قالها (محب) بنبرة جريحة ، مفلتًا يدها لتسقط بجوارها ، واستدار معطيًا ظهره لها ليدارى دمعة شاردة فرضت نفسها على عينه قسرًا ..

حاولت أن ترفع يدها لتضعها على كتفه ، وأن تقول شيئًا يهون مما حدث :

ـ أنا لم أقصد أن ...

قاطعها بحركة سريعة من يده ، وبهتاف حاد لم تتصور أن يصدر عنه فى يوم ما :

ـ من فضلك لا تفسدى الموقف أكثر .. واعتبرى أن شيئًا لم يحدث من الأصل ..

وضعت يدها إلى جانبها ، وعضت شفتها فى ندم ، فى نفس اللحظة التى دوى فيها وقع السنابك من بعيد ، فرفعت عينها نحو الأفق لتراهم يقتربون ..

ـ فى الغالب هم ..

غمغمت بها لنفسها ، واستدار (محب) ينظر بدوره إلى مصدر الصوت البعيد ، فرآهم ..

التفتت (نفرو) مواجهة إياه ، لتهتف فى اندفاع وعيناها تبرقان :

ـ الآن ، هيا .. اقذف بى فى قسوة من فوق هذه الصخرة التى نقف عليها ..

انعقد حاجباه ناظرًا إليها فى غير فهم ، وسألها بصوته الذى ما زال جريحًا :

ـ ولِمَ ؟!

هتفت دون أن يخف اندفاعها :

ـ المفروض أنك نبيل مستهتر وأننى عبدتك التى تعاملها معاملة سيئة ، يجب أن يروا هذا بأنفسهم حتى لا يداخلهم الشك تجاهنا ..

نظر (محب) إليها ، ثم إلى ارتفاع الصخرة ، وقال :

ـ لكن .. قد تصابين .. و ....

هتفت به فى إصرار لم يعهده فى عينيها الكحيلتين من قبل :

ـ هيا .. اقذفنى الآن ..

ودون أن يشعر مد (محب) يده نحوها ليدفعها من فوق الصخرة ..

دون أن يشعر كانت الدفعة قوية ، تحمل الكثير من الآلام والدموع ..

ـ (نفرو) ..

هتف بها وقد رآها تسقط ، شعرها يتناثر فوق ظهرها ، جسدها يرتطم بالرمال فى قوة ليصدر صوتًا مكتومًا ..

ثم ها هى ذى تستلقى فى استكانة ..

كانت فى داخلها تشعر بالألم ، من السقطة ومن قلبها الذى تود خنقه ..

كانت فى قرارة نفسها تستعذب هذا الألم ، وهذا العقاب الذى اختارته لنفسها ..

لكم تكره (نفرو) (نفرو) ، ولكم ودت لو تموت فى لحظة الزلل الشنيعة تلك ..

ها هى ذى فوق الرمال ، (محب) يقفز إلى جوارها ليرى إن كان أصابها مكروه ، وليزيد بحركته هذه ألم فوق ألم ، والفرسان من بعيد يقتربون فى اطراد ..

ـ من هذين هناك ؟!

صدر الهتاف عن (كارع) الذى يركض جواده إلى جوار جواد القائد (واحو) ، متصدرين جماعة الفرسان التى تقطع الصحراء نحو وادى النهر ..

ـ يبدو جوادًا أصيلاً وثمينًا ذلك الرابض فى الظل ..

صاح بها أحد الفرسان ..

ـ وذلك الواقف فوق الصخرة يبدو نبيلاً من النبلاء الذين لا يجيدون الفروسية ..

صاح بها آخر ..

ـ ومن هذه التى معه ؟!

صاح بها ثالث ، فأتاه الجواب ممن يسير خلفه وينظر مع الناظرين :

ـ تبدو جاريته !

ـ السؤال هو ماذا يفعلان فى هذه الصحراء الواسعة ؟!

كان السائل بالطبع هو (باتوب) الذى يشك فى كل شىء ..

ـ انظر قائد (واحو) ، لقد قذف بها من فوق الصخرة ..

نظر الجميع وغلت الدماء فى عروقهم ، وأولهم (واحو) ..

إنه لا يطيق رؤية عبد يُساء معاملته ، فما بالك لو كان هذا العبد امرأة ..

ـ إليهما يا رجال ..

صاح بها (واحو) مشيرًا بحربته نحو الجهة التى هما فيها ، فانطلق سرب الخيول من خلفه إلى هناك دون تفكير ..

الوحيد الذى كان يفكر :

« رباه .. علها لا تكون خدعة أخرى ! »

كان (باتوب) !

لكنه سار خلف القطيع ، مؤثرًا ألا يثير حول نفسه المزيد من العداءات ..

ـ ارفع يدك عنها أيها الوغد ..

هتف بها (واحو) بمجرد بلوغه إياهما ، ومن خلفه الفرسان يثيرون نقعًا كثيفًا ..

أما (محب) فقد استقبل القادمين ببسمة عبث ، متقمصًا دوره كأحسن ما يكون التقمص :

ـ ومن تكونون أيها الشجعان حتى تأمروننى ؟!

أشار (كارع) إلى قائده هاتفًا :

ـ ألم تسمع عن القائد (واحو) أسد الصحراء ؟!

أشاح عنهم (محب) بيده قائلاً فى لا مبالاة أتقنها :

ـ لتهتم الأسود بما لها ، ولتترك ما لا شأن لها به ..

رفعت (نفرو) عينان دامعتان إليهم متقمصة دور الذليلة المغلوبة على أمرها :

ـ أنقذونى أرجوكم ..

قال (واحو) :

ـ لا تخافى ، إننا هنا لمساعدتك ..

ونظر إلى (محب) نظرة قاسية وهو يردف :

ـ .. أما هذا الرجل ، فهو يجهل الهول الذى هو مقبل عليه معنا ..

تجمد (محب) فى وقفته ، وهو يسمع ما يقال ..

كل شىء يسير وفقًا للخطة ، غير أن لهجة (واحو) كانت تحمل التهديد مصحوبًا بما هو أكثر أهمية ..

الصدق ، والرغبة فى التنفيذ !

★ ★ ★

٤ـ انتقـــام ..

ربت (كارع) على ظهر الجواد الأسود ذى السرج المزركش ولجام الذهب ، الواقف تحت ظل المرتفع الصخرى ، وهو يغمغم لنفسه فى انتشاء :

ـ جواد رائع ، أخيرًا سيكون لى جواد أرضى عنه تمام الرضا ..

سمعه (محب) الواقف على مقربة منه ، فهتف فيه ساخرًا و(باتوب) يضع الأغلال الحديدية حول معصميه فى إحكام :

ـ أنتم إذن الذين تسرقون الجياد وتنادون بانتهاء السرقة من العالم ، وتضعون الأغلال فى أيدى الأحرار وأنتم تجاهرون برفض العبودية .. أى تناقض !

نظر إليه (كارع) مقطبًا فى كراهة ، لكن (باتوب) سبقه بالحديث ليسأل :

ـ ماذا كنت تفعل فى الصحراء مع جاريتك يا هذا ؟!

أجابه (محب) فى سخرية صريحة :

ـ كنا نتريض ..

ثم إنه استنشق الهواء المحيط به فى عبث مستهتر :

ـ .. نشم الهواء العليل !

فوجئ (محب) فور إنهائه لعبارته برمح ينغرس فى الرمال على بعد يسير للغاية من موضع قدميه ، وعندما رفع ناظريه إلى الجهة التى أُلقى منها ، رأى (واحو) جالسًا فوق الصخرة التى كان هو فوقها قبل قليل ، وإلى جوارها تجلس (نفرو) ..

ـ عندما يسألك أحد رجالى سؤالا فلا أقل من أن ترد عليه بالاحترام اللائق ..

قالها (واحو) فى ثبات ، فقال (محب) بلهجة لم يدر ساعتها أكانت جدًا أم هزلاً :

ـ سمعًا وطاعة يا أسد الصحراء الهصور !

أشارت (نفرو) بسبابتها إلى (محب) قائلة وهى تستخدم لكنة شرقية فى حديثها :

ـ كان يريد إهدائى إلى صديق له فى بلاد (نهرينا) ..

هز (واحو) رأسه متفهمًا وقال مخاطبًا (محب) :

ـ أنت من الأثرياء إذن ..

قال (محب) فى خيلاء :

ـ لا تبخسنى حقى يارجل ، أنا أكثر تجار (طيبة) ثراء لو كان الثراء هو التعبير المناسب ..

ألم تسمع من قبل عن التاجر (محب) يا هذا ؟!

حك (باتوب) ذقنه فى شك وهو ينقل بصره بين (محب) و(نفرو) قائلاً :

ـ وهل يقطع ثرى مثلك الصحراء عارٍ من الحراسة هكذا ؟!

هز (محب) كتفيه قائلاً فى تبسط :

ـ ولم الخوف يا عزيزى ؟! إننا أكثر البلدان أمنًا وأمانًا !

سأله (باتوب) فى غيظ :

ـ هل تمزح ؟!

ردَّ (محب) سؤاله بآخر فى خبث :

ـ هل أبدو كذلك ؟!

التقطت (نفرو) خيط الحديث لتقول فى أسى يليق بالدور الذى تتقمصه :

ـ لقد اشترانى من صديق له فى (طيبة) ، كنت معروضة

للبيع قبلها فى السوق مع أخى الذى اشترته الحاشية الملكية ، فنحن من وراء البحر أصلا ، من عائلة نبيلة تكالبت عليها الديون وعرف الفقر طريقه إليها ، فتم بيع أبى وأمى وإخوتى جميعًا إلى النخاس الذى أحضرنا إلى (طيبة) حيث يكثر المشترون نظرًا لكثرة الأموال ..

قال (محب) فى نفسه ..

ـ يالها من بارعة ، اختلقت قصة مشابهة لقصة (واحو) حتى تؤثر على مشاعره إلى حد لا يستطيع معه صبرًا .. هكذا النساء دائمًا يجدن التلاعب بالمشاعر !

كانت (نفرو) تكمل :

ـ .. وقد سمعت أن أخى سوف يكون على متن سفينة العبيد التى أصدر الملك (تحتمس) قراره بإهدائها إلى ملك (فينيقيا) ، تلك التى ستنطلق اليوم أو غدًا ..

هتف (كارع) الواقف بجوار الحصان الأسود :

ـ لقد انطلقت اليوم بالفعل ، إنها تقطع النهر الآن إلى آخره وقد تبلغ المصب غدًا أو بعد غد على الأكثر ..

قال (واحو) وقد غابت عيناه فى الفضاء :

ـ لاتقلقى .. لن تصل هذه السفينة إلى المصب على الإطلاق ..

صاحت متصنعة الفزع :

ـ لماذا ؟! أى مكروه سيصيبها ؟!

نظر إليها وهو يبتسم ضاحكًا من قولها ، ثم إنه قال :

ـ سيصيبها الخير كله ، سنكون لها بالمرصاد حتى نحرر كل من عليها من عبيد ..

أشرق وجهها بالحبور :

ـ حقًا ؟!

بينما اندفع (محب) متدخلاً ، فى تقمصه لشخصية الثرى المعابث :

ـ وتستولون على السفينة بالطبع ، أو على محتوياتها على الأقل ..

صاح (كارع) فى غضب :

ـ هو حق لنا ..

وأكمل عنه (واحو) :

ـ نسترده ممن يسلبون الأحرار كل مـالديهم ، بـل وأعز ما لديهم ، حرياتهم ..

رفع (محب) معصـميه المكبلين فى وجهـه ، وهـو يقول فى بسمة متهكمة :

ـ ما دمـت تنـادى بحريـة جميـع النـاس ، امنحنى حريتـى إذن ..

أشاح عنه (واحو) بوجهه :

ـ لست تستحقها ..

تصنع (محب) التبرم وهو يسأله :

ـ ومن الذى يقرر هذه الأحقية ؟!

أشار (واحو) إلى الفرسان المتحلقين من حوله فى شبه دائرة واسعة بجوار خيولهم :

ـ نحن من يقرر هذا .. نحن الأحرار !

ـ لم أسمعك تستشير أحدًا منهم قبل أن تسلبنى حريتى ..

ـ لقد اختاروني حتى أصدر قرارات الجماعة بالنيابة عن الجميع ، اختاروني بمحض إرداتهم الكاملة ..

ـ وما هو قرارك بالنسبة إلىَّ ؟!

ـ أن تذوق من نفس الكأس ، أن تصبح عبدًا ..

ـ عجيب أن يتحدث الأحرار عن العبودية بهذا الشكل المخزى ، عندما أصبح عبدًا فأنا سأثور لكى أحصل على حريتى التى سلبتموها أنتم الأحرار منى !

ـ نحن مع الحق وأنت مع الباطل ..

ـ أنا أرى العكس ..

ـ نظرتك خاطئة بالقطع ..

ـ نعود لنفس السؤال : من الذى يقرر الخطأ والصواب ؟!

ـ أنـا ..

ـ وإن أخطأت من يحاسبك ؟!

ـ هم ..

ـ يتعين عليهم ساعتها أن يحاسبوا أنفسهم أولا لأنهم أخطئوا فى اختيارك ..

ـ ماذا تريد أن تقول ؟!

ـ امنح نفسك فرصة ، وامنح من حولك فرصة .. دون أن تفعل هذا أنت مجرد ثائر بلا قضية !

ران الصمت بعد آخر ما تفوه (محب) ..

الصمت الأبدى البليغ ..

أخذ (واحو) يلهث من سرعة إيقاع الحوار ، وظل (محب) فى ثباته ـ بعد أن تبخر العبث الذى يصطنعه فوق ملامحه ـ بينما أطل الوجوم وعدم الفهم من عيون الفرسان المتحلقين فى شبه دائرة واسعة ..

« لست مجرد ثرى فارغ العقل ، فليقطع ذراعى إن كنت كما تدعى .. »

غمغم بها (بانوب) محنقًا ، فيما اصطنعت (نفرو) نظرة حيرة وهى تقول رانية إلى (واحو) :

لست أفهم ما تقولانه .. هلا تبرع أحد بالشرح والتفسير ؟!

ـ فيما بعد ..

قالها (واحو) بنبرة عميقة قبل أن ينهض واقفًا فى اعتداد ، وقد انعكست أشعة الشمس فوق ملابسه اللامعة ..

ـ ..لتكمل مسيرتنا نحو النهر يا رجال قبل أن تعبر السفينة ..

هتف بها ، لكن شيئًا فى نبراته كان قد انكسر ، نفس الشىء الذى أخفت حماس الرجال وهم يعتلون صهوات الخيول فى تثاقل ..

نظرت (نفرو) إلى (محب) الواقف فى قيوده ، ورأت تأثيره على من حوله ، كأنه الشمس التى أحرقت من اقترب منها ..

ولامت نفسها ـ فى أعماقها ـ ألف مرة ..

أو أكثر كثيرًا !

★ ★ ★

ـ كونا جاهزين ..

غمغم بها (رنف) وعيناه لاتفارقان ظهر (حورى) الجالس يجدف فى الأمام ، وقد قطعت السفينة شوطًا غير قليل من رحلتها نحو المصب ..

قال الجالس أمامه فى همس يكلله الرعب :

ـ تريث يا (رنف) ..

تناثر الشرر من عينى (رنف) وهو يضربه بقبضة معدنية فى ظهره :

ـ الزعيم (رنف) أيتها الحشرة الميتة !

قال الجالس إلى جواره على الناحية الأخرى من السفينة ، محافظًا على انخفاض نبراته إلى أقصى حد ممكن :

ـ نقصد يازعيم أن هذا الرجل بالذات ليس سهلاً ، لقد رأينا جميعًا ما فعله بك فى السجن الكبير !

ـ اخرس ثكلتك أمك ..

هتف بها (رنف) والدم يكاد ينفجر من وجهه المحتقن ، وراودته نفسه عن تلقين رجليه هذين درسًا قاسيًا ، لكنه آثر أن يدخر طاقته للمعركة الكبيرة ..

معركة الانتقام ..

ـ .. اسمعا ، ليس عليكم إلا حماية ظهرى بينما أتسلل إليه وأضرب ضربتى ..

قال الجالس أمامه فى غباء :

ـ حماية ظهرك ممن يا زعيم ؟! إنه وحده !

ـ نفذ ما أقوله دون جدال ولا داعى لأن تجهد مخك الضئيل بالتفكير ..

ثم إنه ترك مجدافه ، واستدار إلى كومة من الحبال الملقاة

فى قاع السفينة بلا استخدام واضح ، ربما للاحتياط عند الرسو الطارئ أو كبديل فى حالة انقطاع حبال الأشرعة ، المهم أنه أمسك بها وانطلق يزحف بين العبيد المجدفين نحو النقطة التى درسها بعناية ..

نحو (حورى) ..

قال الجالس على الناحية الأخرى وهو يراقبه ، مخاطبًا الآخر الجالس فى الأمام :

ـ هل تظن أنه سيفلح فى الأخذ بثاره ؟!

قال الجالس فى الأمام :

ـ (رنف) عنيد ، لكن لو أردت رأيى .. هذا الضابط هو أقوى من شاهدت فى حياتى كلها !

أطل القلق من عينى الآخر وهو يرى (رنف) يقترب زاحفًا من (حورى) والحبال معه :

ـ دعنا نأمل خيرًا إذن ..

فجأة شعر (حورى) بالحبال التى أحاطت برقبته ..

فجأة شعر بالقوة التى تجذبه وسمع الصوت الأجش الذى لم ينسه بعد :

ـ أرجو أن تكون جاهزًا للموت يا صديقى ، إن (رنف) جاهز للقتل ..

كان (رنف) يشل حركته تمامًا ، ويعوق الهواء عن الوصول إلى رئتيه والدم عن الوصول إلى مخه .. ضغط الحبال شديد وذراعا (رنف) من فولاذ بفعل الغضب ، ووجه (حورى) قد صار قطعة من الاحمرار القاتى والاختناق الهالك ..

لكن الموقف تغير بحركة مباغته أخرى ..

ـ لم توضح يا صاح إن كان (رنف) جاهزًا لكى يقتل .. تحدث القائد (سبدو) أخيرًا ، ونهض ممسكًا بكتفى (رنف) من الخلف جاذبًا إياه نحوه ..

ـ .. أو لكى يُقتَل !

جذب (سبدو) (رنف) رغم ضخامة حجمه ، ولما استدار (رنف) إليه مأخوذًا ، استقبله بلكمة حديدية فى وجهه زادته تشوهًا فوق تشوه ، وألقت به ـ كما تعود ـ بين العبيد المجدفين هذه المرة ..

كان (حورى) قد سقط فى الأرض يسعل بقوة ، ولم يقو على رفع يده عندما مدها إليه (سبدو) قائلاً فى بسالة :

ـ لم أتوقع أن أرد لك دينك بهذه السرعة يا صديقى ..

غير أن الموقف عاد فتغير على الفور ، عندما انهالت قطعة من الخشب على رأس (سبدو) فأسقطته أرضًا ، ليبدو من خلفها رجلا (رنف) اللذان كانا يجدفان أمامه وإلى جواره ..

قال أحدهما :

ـ كان (رنف) محقًا ، يجب أن نحمى ظهره ..

وتساءل الآخر :

ـ المهم أين هو الآن ؟!

نظرا حولهما ، وكذلك فعل كل العبيد الذين تركوا التجديف ليتابعوا المشهد المثير ..

دون سابق إنذار برز (رنف) من اللامكان قافزًا فى الهواء بجسده الضخم ، الذى استقر فوق (حورى) مباشرة ، ليعود فيمسك بالحبل الذى يطوق عنقه ، ويبدأ فى الضغط عليه من جديد بكل ما فى جسده من قوة ورغبة فى الانتقام ..

صاح (حورى) فى ألم ، وزاد (رنف) من قوة ضغطه هاتفًا :

ـ أخبرتك أننى سأقتلك ولو كان هذا آخر ما أفعله فى حياتى ..

حاول (سبدو) أن ينهض من سقطته ، لكن (رنف) لاحظ هذا فى الوقت المناسب فهتف برجليه الذى توجهت أنظارهما نحوه مع الباقين :

ـ .. انتبها أيها الغبيان .. اقضيا عليه ..

انتبه الاثنان ، وأسرعا ينهالان بالضرب على القائد الساقط ، الذى لم يستطع النهوض ..

أما (حورى) فقد حاول أن يقاوم الضغط على عنقه ..

حاول وحاول ..

لكن (رنف) كان يملك زمام حركته كلها ، وهو يهدر كالسيل :

ـ فى الجحيم ، تعلّم أن تتحدى الحشرات من أمثالك كما نصحتك من قبل ..

عجز (حورى) عن المقاومة ، فارتخت يداه إلى جواره ، وسكن جسده عن الحركة تقريبًا ..

هنا فقط تركه (رنف) ..

نهض رافعًا يديه فى نصر ، فهلل العبيد له وصفقوا ،

وكان رجلاه قد توقفا عن ضرب القائد الذى غرق فى دمه ، ولم تعد تصدر عنه إلا حركات قليلة تفيد أنه ما زال قيد الحياة ، لكنه ربما لن يستمر فى ذلك طويلاً ..

ـ من الزعيم ؟!

صاح بها (رنف) ، فجاوبه العبيد فى صيحة رجل واحد :

ـ (رنف) ..

ـ يجب أن يموت صاحباتا هذان موتًا يليق بهما ..

كان العبيد مسرورين ، وكبير البحارة عند مقدمة السفينة يراقب ما يجرى صامتًا ، المهم أن تسير السفينة وليحترق ما فيها ومن فيها ..

المهم أنها تسير !

ـ أنت سوف تصعد فوق بطرف الحبل هذا ..

أصدر (رنف) أمره لأحد رجليه ، مناولا إياه طرف الحبل ، فتساءل الرجل فى غباء :

ـ فوق أين ؟!

صفعه (رنف) فوق قفاه هاتفًا :

ـ عند قمة الشراع أيها المغفل ..

امتثل الرجل ، بينما أشار (رنف) إلى الثانى :

ـ أنت سوف تساعدنى ..

ـ فيم أساعدك يازعيم ؟!

ـ فيما أفعله ياغبى !

وطفق (رنف) يمرر الحبل الغليظ حول رقبتى (حورى) و(سبدو) ، بعد أن ساعده رجله فى حملهما بحيث يتجاوران فى قاع السفينة ..

كانت كل خلجة فى وجه (رنف) المشوه ـ إلغارق ـ مـازال ـ فى الدم ـ تطفر بنشـوة الظفر ، وفى النهـاية أشار إلـى رجله الذى تسلق الصارى صائحًا :

ـ ارفع ..

صاح رجله :

ـ أرفع ماذا يازعيم ؟!

صاح (رنف) :

ـ طرف الحبل الذى فى يدك أيها العبقرى !

وبالفعل بدأ رجله فى رفع الحبل ، مسندًا إياه على المنطقة الأفقية من الصارى بحيث تعمل كرافعة ، جذبت معها جسدى (حورى) و(سـبدو) الممددين فى سكون ، وسط صياح وتهليل عبيد السفينة ..

كان الجسدان ما زالا ينبضان بالحياة ، ظهر هذا جليًا فـى الملامح التى صهرها الألم ، إنهما فقط لا يستطيعان حراكًا ، أو لعلهما كانا فاقدان للوعى من هول ما صادفاه على أيدى (رنف) والرجلين الغبيين !

ارتفع الجسدان عاليًا ، واستبد الألم بـ(حـورى) و(سبدو) وهما يُشنقان ببطء فى ارتفاعهما إلى قمـة السفينة ، بينما صيحات العبيد وهتاف (رنف) الشامت يلاحقهما :

ـ هذا جزاء من يتحدى (رنف) أيها الوضيعان ..

صاح الرجل وقد بلغ (حورى) و(سبدو) أقصى ارتفاع لهما على قمة السفينة :

ـ هل أهبط يازعيم ؟!

صاح (رنف) :

ـ اربط الحبل بإحكام فى العارضة الأفقيـة أولا ، ليظلا هكذا على مرأى جميع العابرين ، عبرة لمن لم يعتبر ..

أخذ الرجل يربط الحبل ، بينما (حورى) و(سبدو) يقاومان دون جدوى ..

ـ يبدو أنها النهاية ياصاحبى الذى لا أعرفك ..

نطق بها (سبدو) فى صعوبة ، ويداه تجاهدان لإبعاد الحبل عن عنقه دون جدوى ، فخاطبه (حورى) بصعوبة مماثلة قائلاً :

ـ لنقاوم يا سيدى .. إن المعجزات تحدث أحياناً ..

وكأن (حورى) كان يجتذب بقوله هذا معجزة ما ..

فقد رأى الجميع رجل (رنف) الواقف أعلى الصارى يسقط وفى ظهره رمح طويل اخترقه من الخلف ، وهكذا فقد أفلتت يده الحبل قبل أن يتم ربطة ، فسقط (حورى) و(سبدو) فى قاع السفينة وأخذا يعبان من الهواء بعد لحظات الاختناق الصعبة ..

ـ ما هذا ؟!

صاح بها رجل (رنف) الواقف إلى جواره فى جزع ، وهو يرمق بعينين جاحظتين زميله الساقط بلا حراك فى قاع السفينة ، وقد أخذ الدم يتدفق فى غزارة من حيث دخل الرمح ومن حيث خرج ..

ـ من أين أتى هذا الرمح ؟!

غمغم بها (رنف) متسائلاً ، ثم إنه استدار ناظرًا من حافة السفينة ليرى كل شىء ..

وليفهم على الفور كل شىء ..

كان الفرسان واقفين فوق خيولهم عند الضفة ، وكان الكثيرون منهم يسبحون نحو السفينة التى تنساب على صفحة النهر ، بل إن البعض منهم كان قد اعتلى جسم السفينة بالفعل ..

ـ من هؤلاء ؟!

عاد رجله يسأل فى جزع ، فى اللحظة التى اخترق فيها بعض الفرسان المبتلين السفينة ، مشهرين رماحهم فى وجوه العبيد المستسلمين ..

ـ إياكم أن يتحرك أحد منكم ..

هرول أحد الفرسان نحو الساقطين ، وجثا على ركبتيه إلى جوارهما ..

ـ (سبدو) .. أخى ..

.. كان هو نفسه قائد الفرسان الأحرار ..

ـ من ؟! (واحو) ؟!

غمغم بها (سبدو) وهو يفتح ناظريه فى صعوبة، ثم ابتسم فى شحوب ..

وغاب عن الوعى ..

نهض (واحو) وقد أعماه الغضب، ناظرًا نحو الرجل الساقط بعد أن اخترق الرمح جذعه، وبالتحديد أكثر إلى الرجلين الواقفين بجواره ..

(رنف) الضخم، ورجله الذى ترتعد فرائصه فى خوف عظيم ..

اقترب (واحو) منهما مشهرًا رمحه فى وجهيهما، فهتف الرجل المرتعد :

ـ كلا .. أرجوك .. لست أنا .. أنا لم أفعل شيئًا ..

غمغم (رنف) الواقف إلى جواره فى غيظ مكبوت :

ـ اصمت أيها الـ ..

لكن هتاف الرجل الذى أخذ يشير نحوه فى جنون قاطعه :

ـ هو .. هو الذى أمرنا بضربه .. وبتعليق الاثنين كالشياه المسلوخة هكذا .. أنا من جانبى لم أفعل شيئًا صدقنى ..

اقترب (واحو) واقترب ..

لامس سن رمحه بطن (رنف) الضخم ..

التقت الأعين ..

عينا (رنف) اللتان سألتا الصفح رغم معرفتهما باستحالته ..

وعينا (واحو) الفائحتان برائحة نفاذة ..

رائحة الانتقام ..

فى قيوده عند الضفة كان (محب) يرى كل شىء، وبعينيه يتابع كل شىء، منذ بداية المواجهة حتى اللحظة التى انبثق فيها الدم من بطن (رنف) الذى اخترقه رمح (واحو) ..

نافورة من الدم، ثم ..

السقوط ..

وعندما استدار (واحو) تاركًا رمحه واقفًا فى جسد الضحية، التقت عيناه بعينى (محب) الشاخصتين عند الضفة ..

وأغنى هذا كل منهما عن حوار طويل ..

طويل !

★ ★ ★

٥ ـ مواجهـــــة ..

على ضفة النهر الشرقية رست السفينة وانطوى شراعها وأنزل ركابها ..

على ضفة النهر الشرقية وقف العبيد أمام سفينتهم صفًا ، فى مواجهة الفرسان الأحرار وخيولهم ورماحهم ..

تحت شجيرة صغيرة شحيحة الثمر والظل ، أخذت (نفرو) تضمد جروح (حورى) والقائد (سبدو) ، وقد أفاقا أخيرًا بعد عناء المعركة التى لم يكسباها إلا بمعجزة ..

اقترب منها (باتوب) مستغربًا مهارتها فى تضميد الجراح :

ـ لك أنامل بارعة فى الطب أيتها الجارية ، إن كنت بالفعل كذلك !

قالها فى شك بين ، فلفقت (نفرو) لنفسها كذبة فورية سريعة :

ـ كنت أمرّض جدى وجدتى قبل أن يموتا معًا فى يوم واحد !

صفر (باتوب) فى استعظام ، ثم قال :

ـ فى يوم واحد ؟! يا لها من صدفة غريبة ..

هزت (نفرو) كتفيها قائلة فى عدم اكتراث :

ـ الحياة مليئة بالصدف التى لا يصدقها عقل ..

ـ صدقت ..

قالها (باتوب) وهو يحدق فى (حورى) الذى لم ينطق بكلمة واحدة ، حريصًا على ألا يرسل بنظرة إلى أى شخص .. بالذات (نفرو) !

ـ .. لماذا ينتابنى هذا الشعور الغريب بأن هؤلاء الثلاثة يربطهم شىء ما ؟!

غمغم بها (باتوب) لنفسه وهو ينقل بصره من (حورى) بملابسه العسكرية التى أصبحت خرقًا بالية ، وإلى (نفرو) فى ملابسها المتواضعة التى تليق بمخدومة رقيقة الحال ، ثم إلى (محب) الذى انتبذ بنفسه مكانًا قصيًا عن الزحام ، بملابسه الفخمة التى تليق بثرىّ طيبى حقيقى ، وبالقيود التى لا تزال تحيط بيديه ..

لا رابط بينهما فى الظاهر ، لكن شعورًا قويًا فى أعمق أعماق (بانوب) كان يشير إلى العكس وإلى أن هناك صلة ما بين هؤلاء الثلاثة بالذات ..

ـ كيف حال ثريّا الفيلسوف ؟!

تساءل (بانوب) إذ دنا من (محب) الذى لم يكن ينتظر سؤالاً من أحد ..

ـ لست فيلسوفًا ..

قالها (محب) فى اقتضاب ، فقرب (بانوب) وجهه من وجهه ؛ لينظر فى عينيه مباشرة :

ـ ماذا عن الثراء إذن ؟!

نظر (محب) فى عينيه مباشرة بثبات لم يتوقعه :

ـ أخبرنى باختصار ، ماذا تريد ؟!

تراجع (بانوب) إثر الهجوم غير المتوقع :

ـ لا شىء !

وابتعد ليبحث عن تربة أخرى ؛ يبقى فيها بذور شكه المتنامى فى كل ما حوله ..

عند السفينة كان (واحو) يسأل البحار فى تأنيب :

ـ وتركتهم يفعلون ببعضهم كل هذا دون أن تحرك ساكنًا ؟!

قال البحار الذى لم يهتز أمام الكلمات :

ـ ليس مهمتى منع الشغب ، علىّ أن أصل بالسفينة سالمة إلى مرساها والسلام ..

أغاظ الجواب (واحو) فهتف :

ـ وكيف كنت لتصل بها فى ظل ما حدث ؟!

عاد البحار يجيبه فى ثبات :

ـ وظيفة البحار أن يجابه أخطار الطبيعة ، عاصفة هوجاء أو أمواج عاتية مثلاً ، أما أخطار البشر فإن مجابهتها لها وظيفة أناس آخرين ..

ـ رجال الأمن !

أتى التعليق من (بانوب) الذى اقترب من موقع الجدال ملوحًا برمحه ، وعندما نظر إليه (واحو) والبحار .. تابع واقفًا بينهما :

ـ كيف فاتنا هذا أيها الأخ (واحو) ؟! بهذا الحجم وبهذه الأهمية ـ لاحظ أنها مهداة من ملك إلى آخر ـ كيف يمكن أن تسير دون أن يحرسها قاربى أمن على الأقل ؟!

أضعف الإيمان أن تكون هناك حراسة على متنها لتقيها شر الطريق !

أصاب السهوم (واحو) للحظة حاول فيها أن يغمغم بشىء ما :

ـ ربما ...

انتظره (باتوب) :

ـ ربما ماذا ؟!

عقد (واحو) حاجبيه سائلاً (باتوب) فى مباشرة :

ـ ماذا تريد أن تقول بالتحديد يا أخ (باتوب) ؟!

عقد (باتوب) ساعديه أمام صدره قائلاً فى ثقة :

ـ تعرف أن هناك شعورًا بعدم الراحة يساورنى منذ البداية يا أخ (واحو) ..

ثم إنه أشار إلى أنفه متابعًا :

ـ أشم رائحة لا أحبها ، رائحة فخ .. أو مؤامرة ..

أصابت الكلمات هدفها بدقة فى أعماق (واحو) ، فانطلق إلى حيث تمرّض (نفرو) شقيقه (سبدو) ومن معه ـ (حورى) ـ وصدره بالأسئلة يغلى ..

ـ ما الذى يحدث بالتحديد يا (سبدو) ؟!

تحامل (سبدو) على ذراعيه ليعتدل جالسًا أسفل الشجيرة ، وهو يستفسر بدوره سائلا :

ـ عم تتحدث يا (واحو) ؟!

ـ دعنى ألقى السؤال على مسمعك بمنتهى الصراحة ، ولتجبنى عنه أنت بمنتهى الصراحة أيضاً ودون كثير من التفكير ..

والتقط (واحو) أنفاسه قبل أن :

ـ .. هل ألقوك فى طريقى لتكون وسيلة للقبض علىّ يا (سبدو) ؟!

سيطرت (نفرو) على ملامحها بصعوبة إثر السؤال غير المتوقع ، أما (حورى) فلم يجد صعوبة فى ذلك بفعل الألم الذى كان يلهيه عن أى شعور آخر ، وبالنسبة لـ (محب) لقد كان بعيدًا عن الحوار ..

ـ ماذا تعنى ؟!

تساءل (سبدو) فى دهشة ، فصاح (واحو) فى عصبية :

ـ لا تجب عن أسئلتى بأسئلة !

ران الصمت والتفكير ، حتى أجاب (سبدو) فى النهاية برباطة جاش :

ـ كلا .. لم يحدث هذا يا (واحو) العزيز ..

عاد (واحو) يسأل ونبراته تزداد عصبية فوق عصبية :

ـ لماذا ألقوا القبض عليك وجردوك من منصبك إذن ؟!

حاول (سبدو) التحلى بأكبر قدر من ضبط النفس وهو يجيب :

ـ كل ما أعلمه أنهم وجدوا لدى برديات تفيد بكراهيتى للنظام القائم ، وأخطط فيها للانقلاب على الأسرة الملكية باستخدام موقعى كقائد فصيلة فى الجيش ..

ـ وهل هذا حقيقى ؟!

ـ كلا !

قالها (سبدو) قاطعة ودون تفكير ، فامتد خط النار بين عينيه وعينى أخيه :

ـ وإذن ؟!

ـ هى مؤامرة ضدى ، لا أعلم من وراءها ولا دافعه لذلك .. هل استرحت الآن ؟!

خفض (واحو) عينيه ، وأطرق برأسه ، بينما انطلق (سبدو) مستطردًا :

ـ .. ربما تختلف أفكارنا يا (واحو) ، لكننا فى النهاية شقيقين ، كل منا يؤثر فى حياة الآخر ويتأثر بما يجرى للآخر .. لقد راودتنى فكرة أنهم فعلوا بى ذلك لمجرد الانتقام منك أو للإيقاع بك كما تقول ، لكنه قدرى الذى لم أملك له دفعًا .. قدرى أن أكون أخاك ، وأن تكون أخى .. يا (واحو) !

رفع (واحو) عينيه ، وكانت مفعمتين بالأمل :

ـ مازالت الفرصة أمامنا يا أخى (سبدو) .. مازال أمامنا متسع من الوقت ، ومساحة شاسعة من الطموح نحو تحقيق الحلم ..

ـ جنة الفقراء وفردوس الأحرار ..

ـ هذا حلمك أنت يا (واحو) ، هاجسك الذى تدفع ثمنه كل لحظة من شعورك ومن دمك ومن حياتك التى ضاعت ، ضيعها الفقراء والأحرار الذين تتحدث عنهم ..

ـ لا تزال هناك فرصة يا (سبدو) حتى أغير هذه الأفكار التى زرعها الكهنة والنبلاء والأثرياء فى رأسك

يا أخـــى .. صـــدقنى ، ليـس العـــالم الـــذى تحيـــا بعالـــم يستحق ..

ـ الصحراء إذن تستحق ؟!

ـ الصحراء مرحلة ، خطوة نحو واحة الفردوس ..

ـ خطوة نحو السراب ..

ـ انظر ما فعل بك العالم الذى تدافع عنـــه ؟! تحولت فيه إلى عبد فى سفينة ، يهديك ملك إلى ملك وأنت لا تملك حق الاعتراض أو الدفاع عن حياتك ..

ـ عالمك الذى تحلم به لا وجود له إلا فى خيالات الحالمين من أمثالك ، كيف تطلب منى أن أحلم بعالم لا وجود له ؟!

ـ الحلم فى حاجة لمن يحققه ليس إلا ...

ـ ومن أدرانى أننى فى عالمك لن أكون من الأشرار المنبوذين الذين سوف يصبحون عبيدًا لكم ؟! من يضمن لى مثالية عالمك يا أخى العزيز ؟!

ـ أنا أضمنه لك ، لأنه سيكون عالمى ..

ـ القبر دون حلمك ..

ـ عالمى لن يكون فيه سوى الحرية ، لن يكون فيه مكان للعبيد ..

ـ لا عالم بلا عبيد !

ـ سأمنح الإنسان حريته التى يحارب ويموت من أجلها ..

ـ ومن أدراك أن الإنسان قد يحارب من أجل الحرية حتى الموت ؟!

بهت (واحو) لقول شقيقه ، وغمغم سائلا :

ـ ماذا تعنى ؟!

أشار (سبدو) إلى العبيد المصطفين أمام السفينة ، هاتفًا :

ـ هاهم أمامك .. امنحهم حرية الاختيار ، ليكونوا أحرارًا أو يكونوا عبيدًا ..

نظر (واحو) إلى حيث عاد بعينيه نحوه ليحدق فيه مأخوذًا بهول الفكرة :

ـ سيختارون الحرية بالطبع ..

لوح (سبدو) بيده :

ـ لا تتسرع ..

أعطى (واحو) شقيقه ظهره وانطلق يهرول نحو العبيد الواقفين مغلوبين على أمرهم ، توقف أمامهم ورفع يديه ليخاطبهم :

ـ أيها الإخوة فى الحرية ، لستم عبيدًا بعد اليوم .. إننى أمنحكم الحرية التى يحارب الإنسان ويموت من أجل الحصول عليها ..

ظلوا يحدقون فيه فى صمت ، فكاد قلبه ينخلع حتى هتف أحدهم :

ـ من أنت ؟!

أجابة على الفور كأن سؤاله طوق النجاة :

ـ أدعى (واحو) .. شقيقك فى الإنسانية ..

هتف آخر :

ـ أنت لا تملك أن تمنحنا حريتنا ..

أفزعه القول فى حين هتف آخر :

ـ الملك (تحتمس) سلبنا الحرية ، هو وحده من يملك إرجاعها لنا إن أراد ..

هتف فيهم (واحو) مصعوقًا :

ـ أيها الحمقى ، الحرية حق لا يملك أحد أن يسلبه منكم أو يعطيه لكم ..

هتف عبد :

ـ الملك فعل ..

وهتف عبد آخر :

ـ نحن عبيده المخلصين ، وسنظل له طائعين ..

ثم هتف ثالث :

ـ كيف تقول أن الحرية لا تُعطى وتقول فى نفس الوقت أنك تعطيها لنا ؟!

ـ أنتم لا تفهمون ..

قالها (واحو) فى يأس ، وحاول أن يفسر أكثر :

ـ .. إننى مجرد وسيلة .. أداة تعثرون بها على حريتكم المفقودة ..

عبد :

ـ كأنك تنصب نفسك علينا ملكًا ..

عبد آخر :

ـ اكتفينا من الملوك ، عندما تجلس فوق العرش امنحنا حريتنا ..

عبد ثالث :

ـ لانريد الحرية ، فالحرية مسئولية ضخمة ترفعها عن كواهلنا حياة العبودية اللذيذة !

كابوس !

هذا ما فكر فيه (واحو) لحظتها ..

إنه كابوس بشع قد يصحو منه فى أى لحظة ..

أصابه الفزع الرهيب عندما وضع (سبدو) يده على كتفه من خلف ظهره ، وقد سار حتى البقعة التى يقف شقيقه فيها بصعوبة ، ليقول :

ـ لا تجهد نفسك أكثر ، ها قد انهار الحلم أمام عينيك ..

هتف (واحو) مكابرًا :

ـ كلا .. كلا .. هناك خطأ ما .. بالتأكيد هناك خطأ ما ..

قال (سبدو) فى صراحة جارحة :

ـ آن الآوان لتنضج وتعرف أن النضال أكذوبة كبرى يعيش فيها الحالمون فقط أما الواقع فسيظل أبدًا واقعًا ..

أطرق الفرسان والعبيد وزهور (اللوتس) ..

اختفت الشمس خلف سحابة كبرى اعترضت مجرى السماء ..

وصمت الكون كله فى لحظة حداد صامتة ..

لحظة موت الحلم الكبير ..

ـ وإذن ؟!

تساءل (باتوب) ، الفارس الوحيد الذى لم يطرق برأسه ..

رفع (واحو) رأسه عن كتف أخيه ، كانت عيناه مبللتان بالدمع ، لكن أشعة الحلم لم تكن قد خبت فيهما حتى التلاشى ..

استدار مواجهًا العبيد ، أشار نحو سفينتهم قائلاً :

ـ أكملوا رحلتكم إذن نحو سيدكم الجديد ..

ثم استدار مرة أخرى مواجهًا أخاه ، وقائلاً :

ـ أما أنا فالنضال قدرى ، كما أن السيادة قدرك ، والعبودية قدرهم .. هكذا تكتمل أضلاع مثلث الأقدار يا أخى العزيز ..

نظر (سبدو) إلى نقطة قصية على امتداد النهر ، وعض على شفتيه فى قهر قائلاً بعد لحظة من التردد :

ـ أخشى أن هذا لن يحدث أيضًا يا أخى ..

استدار (واحو) ناظرًا إلى حيث ينظر أخيه ، وفهم ما يرمى إليه على الفور ..

مراكب الجنود المقتربة فى سرعة من موقع رسو السفينة قالت كل شىء ، وفرساته الناظرين حولهم أيضًا قالوا :

ـ إنهم يحاصروننا يا أخ (واحو) !

فرسان الجندية بملابسهم الرسمية يحاصرون الفرسان الأحرار ..

المراكب تقترب ..

الحلقة الجهنمية تضيق على من فى داخلها ..

وكأن انهيار الحلم وحده لا يكفى ..

ـ ماذا نفعل يا أخ (واحو) ؟!

تساءل (كارع) فى خوف عظيم ، وارتباك أعظم ، وربت (سبدو) على كتف أخيه قائلاً فى تهوين كاذب :

ـ أرى أن تستسلم فى هدوء يا أخى ، ستدور مذبحة شرسة تراق فيها الدماء البريئة فيصبح الجميع خاسرين ..

ـ صدقت يا أخى ..

قالها (واحو) ، واستدار ينظر فى عينى أخيه وقد ارتسمت بسمة غامضة على وجهه :

ـ .. لكنى أخشى أن هذا أيضًا لن يحدث !

قطب (سبدو) :

ـ ماذا تعنى ؟!

ـ إن كان لابد أن يراق دم من أجل تخليد الفكرة ، فلابد أن يكون هذا الدم ..

والتقط (واحو) رمح أقرب الفرسان إليه بسرعة البرق ..

ـ .. هو دمى !

ثم زرعه فى بطنه الذى تفجر بنافورة عنيفة من الدم ..

سقط (واحو) على الأرض المعشوشبة التى تلونت بالأحمر القانى، أمام عينى أخيه الذاهلة، فيما أطبق الحصار على الواقفين الذاهلين ..

عبيدًا، وأحرارًا على حد سواء !

★ ★ ★

٦ ـ حـــرية ..

أبحرت سفينة العبيد فى عكس اتجاه التيار، صاعدة نحو الجنوب ..

نحو (طيبة) ..

عند مقدمتها وقف القائد (سبدو) ـ بملابس عسكرية جديدة ـ وبجواره ضابط عالى الرتبة، فيما أخذ العبيد يجدفون بهمة لا تعرف الكلل ..

ـ إذن فقط كان الأمر خدعة بالفعل كما استنتج (واحو) قبيل موته ..

غمغم بها (سبدو) فى ألم غير خاف، بينما هز الضابط بجواره رأسه بالإيجاب قائلاً :

ـ كانوا يريدون إخماد مشاغباته فى طرق الصحراء بأى ثمن يا سيدى القائد ..

تنهد (سبدو) ناظرًا إلى جثمان أخيه الممدد فى نهاية السفينة، قبل أن يتمتم فى لهجة لها ألف معنى ومعنى :

ـ نعم، بأى ثمن !

ثم إنه نظر إلى الفرسان الذين جلسوا بين العبيد المجدفين مقرفصين ، بينما أنشأ الضابط يقول :

ـ بالنسبة للفرسان الذين كانوا معه فسيوضعون فى السجن الكبير حتى ..

هتف به (سبدو) مقاطعًا فى صرامة :

ـ كلا ..

قال الضابط فى تسليم :

ـ إنها الأوامر ..

قال (سبدو) دون أن تلين صرامته أنملة :

ـ ما داموا عبيدًا فسوف أشترى حريتهم بالثمن الذى يرتئيه القصر ، وسأجعلهم جنودًا فى فصيلتى لتستفيد البلاد من مهاراتهم الحربية ..

علق الضابط بقوله :

ـ اقتراح وجيه ..

ثم إنه أضاف :

ـ ..لكن أحدهم ـ ويدعى (باتوب) ـ اختفى أثناء الحصار ، ولا نعرف أين ذهب ..

ـ أنا أعرف ..

قالها (سبدو) فى خفوت ناظرًا إلى جهة الشرق حيث تمتد الصحراء خلف مساحات الحقول المكسوة بالأخضر :

ـ .. مناضل آخر فى سبيل حلم مستحيل !

تابع الضابط الذى لم يسمع ـ أو يفهم ـ شيئًا من غمغمة (سبدو) :

ـ يتحدثون أيضًا عن عبد مفقود ، وأسيرة كانت مع الفرسان ، وثرى طيبى معتقل لا أثر لأى منهم ..

ـ هذه أيضًا أعرفها ..

قالها (سبدو) بنفس الخفوت ، وقد تسللت بسمة نزقة إلى محياه البارد ..

ـ .. يالها من زهور (لوتس) جميلة !

نظر الضابط إلى حيث ينظر القائد ؛ ليرى على صفحة النهر الممتد أسفل السفينة تجمعًا هائلاً من زهور اللوتس الخلابة ، فابتسم بدوره رغمًا عنه لجمال المنظر ، المتوحد مع الغروب البعيد فى لوحة تخلب الناظر مهما كان جمود قلبه ..

فى مكان آخر من النهر كان قارب البردى يسبح فى اتجاه الجنوب ، يجدف فيه (محب) بزى الثرى النبيل بعد أن انخلعت الأغلال من يده ، بينما (حورى) مستلق فى القاع يحاول مغالبة الآلام التى ما زالت تسرى فى أعضائه المحطمة ..

ـ كدت تفقد حياتك يا صديقى ..

قالها (محب) ناظرًا إلى (حورى) المستلقى على ظهره ، والذى أجاب فى اقتضاب :

ـ كلنا سنفقد الحياة يومًا ما ..

تنهد (محب) قائلا فى وجد :

ـ يفكر بهذه الطريقة من لايملك مايخاف عليه فى هذه الحياة ..

تساءل (حورى) فى استغراب :

ـ هل تملك أنت ما تخاف عليه ؟!

ـ بالطبع ..

قالها (محب) دون تفكير ثم توجه بالسؤال نفسه إلى رفيقه :

ـ .. وأنت ؟!

ـ ماذا عنى ؟!

ـ هل تملك ما تخاف عليه ؟!

صمت (حورى) طويلا متأملاً فى صفحة السماء الأرجوانية ، قبل أن يقول فى صدق ..

ـ لا أعرف ..

ـ توقعت هذا ..

استمر (محب) فى تجديفه ، ودون أن يشعر بدأ فى الغناء :

كم أتمنى لوكنت ..

مجرد خاتم فى إصبعك الصغير ..

حتى أستطيع أن ألمس أناملك ..

فى خلسة من الآخرين !

فى معبد قائم بين أحراش (منف) ، يعلوه رسم لزهرة (لوتس) كبيرة ، وقفت شابه جميلة تراقب الغروب ، وتتذكر ما جرى ..

وتبكى فى حرقة !

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]